أسماء يوم القيامة.. فى القرآن

القرآن سمى يوم القيامة يوم الدين، وسماه يوم الوعيد، وسماه يوم الفصل، وسماه الصاخة، وسماه الوعد الحق، وسماه الواقعة، وسماه الساعة، وسماه يوم الآزفة، وأطلق عليه مسميات أخرى، وكل هذه مسميات لمظاهر هذا اليوم وما سيحدث فيه. ما هو اليوم الآخر؟ هو انتهاء أمد الدنيا، وابتداء أمد الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، ولذلك سماه الله اليوم الآخر، وليس معنى ذلك أننا سننتظر إلى آخر أيام الدنيا، أو انقضاء عمرها لنرى لمحات مما سيحدث فى الآخرة، بل إن كل إنسان فينا إذا كانت آخر أيامه من الدنيا يرى مقدمات الغيب، بل إنه يرى هذه المقدمات وهو يحتضر، وهذا ما ستتعرض إليه الفصول القادمة، ولكن الذى أريد أن أقوله: إن لكل مرحلة من مراحل الحياة قوانينها، فحياة اليقظة فى الكون لها قوانين، وحياة النوم فى الكون لها قوانين، وحياة البرزخ وهى ما بعد الموت إلى يوم القيامة لها قوانينها، وحياة الخلود فى الآخرة لها قوانينها، وكل قانون مختلف تماماً فى كل مرحلة، كما سنتحدث عن هذا تفصيلاً.

ويوم الفصل هو اليوم الذى يفصل فيه بين الناس، فلا يوجد عمل فى الآخرة، ولكن يوجد فصل فيما فعله الناس فى دنياهم؛ مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾ [الزلزلة].

ولا يحسب الإنسان أنه مهما فعل سيتقبل منه عمل فى يوم القيامة، بل إن عمل الإنسان ينقطع من ساعة الاحتضار، فليس هناك عمل فى حياة البرزخ؛ مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: ١٣].

أى إن الذين ماتوا وهم كفار لا يقبل لهم عمل بعد الموت.

ويوم الفصل معناه أنه لابد أن يحشر الناس جميعاً ليفصل بينهم، ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى يوم الجمع، ويوم الحشر، فى وصف يوم القيامة، وبعض الناس يعتقد أن هذه مترادفات لفظية، ولكن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى الذى لكل لفظ وحرف فيه معنى دقيق ينبهنا إلى شىء جديد، فيوم الجمع أن يجمع الناس جميعاً فى صعيد واحد ولكن يوم الحشر مختلف تماماً، فكلمة الحشر يريد الله أن يعطينا بها إحساساً بضيق المكان ذلك أنك عندما تحشر شيئاً فإنك فى العادة تحاول أن تدخل شيئاً كبيراً فى مكان ضيق.

وإذا أردنا أن نقرب هذه الصورة إلى الأذهان فإننا نقول: تصور أى مكان من يوم أن

خلق الله الأرض ومن عليها، وتصور أنك أحصيت الخلق الذين تواردوا على هذا المكان ستجد أنهم عدد كبير جدا، تصور بيتاً كان فيه رجل وامرأة تزوجا وأنجبا أولادا، والأولاد كبروا وتزوجوا وأنجبوا أولادا، أى البيت الذى كان فيه اثنان واسع عليهما جدا، فإذا بلغوا مائة أصبح المكان يضيق بهم ، فإذا بلغوا ألفا أصبحوا محشورين فى هذا المكان، والله سبحانه وتعالى سيبعث الناس مرة واحدة، وليس تباعاً كما خلقهم، وإذا أحصيت عدد من سكنوا بلداً من البلاد من أول ما نشأت الحياة، وأحصيت الذين ولدوا على أرض هذا البلد ثم ماتوا ودفنوا فيه من أول الخلق إلى يوم القيامة، ثم بعثوا مرة واحدة، ما هو الموقف؟ إذن . فالحيز سيصبح محشورا بالناس، لأن الحياة التى نشرت فى هذا المكان فى أزمان مختلفة عادت لأصحابها مرة واحدة.

كأن الناس سيحشرون حشرا مع بعضهم البعض يوم القيامة، رقعة الأرض التى ضاقت بالأحياء الذين عمروها فى أزمان مختلفة سيحشر الناس فيها حشرا يوم القيامة، كأن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ [هود: ١٠٣].

يعطينا معنى الجمع، ولكنه لا يعطينا صورة هذا الجمع فيأتى يوم الحشر ليوضح الصورة الرهيبة التى سيكون عليها الناس يوم القيامة.

ومن مظاهر هذا اليوم، كما وصفه الله سبحانه وتعالى، أنه يوم الدين، أى إن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على منهجه، وهل اتبعوه أم خالفوه، أم نسوه، أى إن هذا يوم لا ينفع الإنسان فيه إلا دينه.

وهو يوم التناد، يوم نخرج جميعاً كل واحد منا ينادى الله، وهو يوم الآزفة، أى يأزف علينا فجأة، هو يوم القيامة الذى فيه نقوم من قبورنا، وهو يوم الجزاء، أى يوم يعلن فيه نتيجة الامتحان الذى مر به الإنسان فى الحياة الدنيا، ولا ينفع فيه إلا اجتهاده فى طاعة الله فى الدنيا.

وهو يوم الصاخة، التى تصُخ الأسماع، ويوم الطامة التى تطم الجميع، ويوم القارعة التى تقرع الآذان فتنبهنا من نومنا العميق، ويقوم الناس لرب العالمين.

وهكذا نرى أن كل اسم من أسماء يوم القيامة، إنما يمثل ظاهرة من أسماء هذا اليوم.

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى ختام الفصل الأول، وقبل أن نتحدث عن علامات الساعة، التى تحقق منها والذى لم يتحقق، لابد لنا من وقفة نتحدث فيها عن: لماذا وصف الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأنه يوم؟ مع أن الله لا زمن عنده، وما معنى هذا الوصف؟ كما نتحدث عن انتقال الإنسان من آخر مراحل الدنيا إلى حياة البرزخ التى يبقى فيها حتى يتم البعث، أو حتى يأتى يوم الحساب.

القرآن الكريم.. وسر الروح

إذا أردنا أن نفهم كلمة الروح، فإنها ذلك السر الإلهى الذى يهب الحياة للمادة، أو الذى تحيا به المادة، أو هو إرادة الله لها أن تحيا، فإذا سلب الله هذه الإرادة انتهت الحياة بشكلها الدنيوى، ولذلك يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا كأنها فترة قصيرة من الوقت فى رحلة الحياة الكبرى، يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ثم يرحل، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لى والدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم رحل وتركها»[1].

وحينما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح ومم تتكون؟ وكيف تهب الحياة للجسد؟ ثم تذهب عنه، وهنا قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

أى إن الروح سر من أسرار الله سيظل غيباً عنا إلى يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى علمنا الأرضى الذى نظن أنه كثير لن يصل إلى سر الروح.

بل إن تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح - وهى تعيش فى جسد بشرى - يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم عنها شيئاً.. كيف جاءت؟ وكيف خرجت؟ وفى أى مكان هى فى الجسد؟ هل هى فى القدم التى تمشى، أم فى القلب الذى ينبض، أم فى الرئتين اللتين تتنفس بهما، أم فى العقل الذى يعطى الإشارات كلها للجسم؟ كل هذا عجز عن أن يحدده علماء الأرض الذين يجادلون فى الله بغير علم، ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله، أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله، ويعلنون الكفر والإلحاد، الروح فى أجسادهم وهى معهم فى رحلتهم من المهد إلى اللحد، أو من الميلاد إلى القبر، ولكن أين هى الروح التى فى أجسادهم؟ وأين مكانها؟ الجواب طبعاً أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها، وتقول لهم: ما هو شكلها؟ فيقفون صامتين بلا جواب، فتقول لهم: هل هى موجودة؟ فيقولون: نعم.. لأنها تعطينا الحياة، فتقول لهم: إذا كانت الروح وهى موجودة وجوداً يقينيًا فى أجسادكم، وفى كل شىء حى. إذا كان هذا المخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى لا تستطيعون الإحاطة به، ولكنكم ترون فى آثاره أنه يمنح الحياة للجسد، فكيف تريدون رؤية الله؟ وتجاهرون بأن عدم رؤية الله إنكار لوجود الله سبحانه وتعالى، ألا تكفى هذه التجربة التى هى فى أجسادكم والتى تعيش

---

(١) سبق تخريجه.

معكم لتبين لكم أنكم تفترون على الله؟ وكان من الأجدر بكم وهذه الآية موجودة فى أجسادكم أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الإعجاز، وتؤمنوا بوجود الله وبعظيم علمه وقدرته؟

لكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية؟

أولاً: لأنه دليل قدرة، دليل قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يضع فى الجسد البشرى ما يهبه الحياة دونما أن يستطيع أحد من الناس معرفته، وعندما نرى هذه القدرة نحس بعظمة الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذا السر فينا دونما أن نستطيع اكتشافه.

وثانيا: أنه دليل وجود بلا رؤية، فنحن نعرف يقيناً أن الروح موجودة فى الجسد؛ لأنها تعطينا الحياة فمادامت الحياة موجودة فالروح موجودة، فإذا خرجت الروح من الجسد توقفت الحياة، وهذه بديهية وليست محتاجة إلى دليل، وإنما هى توضح لنا بشكل يقينى دائم معنى الغيب، وترد على الذين يقولون إن الغيب غير موجود؛ لأنه محجوب عنا.

نقول لهؤلاء: إن الروح محجوبة عنا فنحن لا نراها ولا نعرف شيئاً عنها ولكنها موجودة بدليل أنها تعطينا الحياة. إذن.. لا نقول ما هو غيب عنا ليس موجودا.

وهناك دلائل أخرى على أن الغيب موجود، منها الاكتشافات العلمية التى تتم فإننا نرى ميكروبا من الميكروبات، أو كوكباً من الكواكب، ويدخل فى علمنا البشرى، فليس معنى ذلك أنه لم يكن موجوداً قبل أن نكتشفه، بل معناه أنه كان موجوداً ثم أتاح لنا الله سبحانه وتعالى قدرات مكنتنا من رؤيته، ولكنه كان يباشر مهمته فى الحياة قبل أن نراه أو نعلم بوجوده.

وهكذا كل الاكتشافات العلمية الجديدة - هى قوانين الله فى الأرض - كانت تباشر مهمتها قبل أن نكتشفها، واكتشافنا لها ليس معناه أننا أوجدنا هذه القدرات أو القوانين، بل معناه أن الله أراد أن يعلمنا بها، فالغلاف الجوى لم نضع فيه نحن خاصية حمل الطائرات ولا نقل الأصوات والصور للإذاعة والتليفزيون، ولكن هذه الخصائص كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها، ولكنها كانت غيباً عنا ثم كشفها الله لنا.

ولكن إذا كانت هناك أشياء كثيرة فى الكون نستطيع أن نستدل بها على أن ما هو غيب عنا موجود، فلماذا غَيَّبَ الله علم الروح عنا؟ لأن هذه الاكتشافات العلمية محتاجة إلى أن يدرس الناس ويتعلموا حتى يصلوا إلى فهم لها، ولكن ذلك الذى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يستوعب مثل هذا العلم، والله سبحانه وتعالى لا يفرق بين عباده بل يساوى بينهم جميعاً، وبما أن وجود الروح فى الجسد دليل لا يحتاج إلى تعلم، بل هو شىء محس يُرى للناس، كل الناس ويعرفه الجميع، لذلك بقيت الروح لتكون دليلاً للناس كلهم على أن ما هو فوق قدرة العقل، أو ما لا يحيط به العقل موجود، حتى إذا دخل الشك إلى أى نفس يكفى أن تضرب مثل الروح، ليعلم الناس جميعاً وبدون حاجة

إلى تعلم وقراءة، أن ما لا يحيط به العقل موجود فى الكون، بذلك يساوى الله بين خلقه فى الدليل الإيمانى على أن ما هو غيب عنا، وما هو فوق قدرة عقولنا موجود.

والسبب الثالث، أن حقيقة الروح، سواء علمت بها أو لم تعلم، لا يفيدك ذلك شيئاً فى حياتك الدنيا، فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها، فهى تعطيك الحياة والقدرة، سواء علمت بها أو لم تعلم، وفى ذلك يتساوى الذى لم يقرأ سطراً فى حياته والإنسان الذي بلغ مبلغاً كبيراً من العلم، فكلاهما ينتفع بالروح انتفاعاً كاملاً طوال رحلة حياته سواء علم سرها أو جهل ذلك السر.

إذن.. فأنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة، ولست محتاجاً إلى أن تعرف سرها، فهو بالنسبة لك جهل لا يضر.

على أننا يجب أن نتوقف عند قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

ماذا تعنى كلمة أمر ربى، القرآن الكريم يبين لنا ذلك فيقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

إذن.. أمر الله هو إرادة الله سبحانه للشيء أن ينتقل إلى حياة البشر بكلمة ﴿كُن﴾، وأن يخرج الشيء من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر ليباشر مهمته فى الحياة.

نأتى بعد ذلك إلى مهمة الإنسان فى الكون، نجد أن الله سبحانه وتعالى قد كرّم آدم تكريماً عظيماً وجعل الملائكة يسجدون له ثم حمّله الأمانة.

ما الأمانة؟ الأمانة هى شيء لا يقوم عليه دليل مادى مكتوب، فإذا أتيت إلى شخص وأعطيته مبلغاً من المال وأخذت منه إيصالاً أو شيكاً بالمبلغ لا يكون هذا أمانة، ولكنه يكون ديناً، ولكن إذا أعطيته مالاً أو شيئاً آخر، وتم ذلك بدون ورقة مكتوبة وبدون أن أشهد عليه الناس أكون قد أعطيته أمانة يستطيع أن ينكرها، وأن يردها فى أى وقت شاء، بدون أن يكون لدى دليل مادى إذا أنكره.

والسلوك بالنسبة للأمانة ينقسم إلى ثلاثة ردود فعل:

رد الفعل الأول: أن يقبل الإنسان الأمانة، ويقول أعطها لى وهى فى الحفظ والصون إلى أن تأتى لتطلبها.

ورد الفعل الثانى: هو أن يخاف الإنسان من نفسه ويقول: اعفنى من هذه المهمة، فأنا لا أستطيع أن أضمن نفسى ويدى ستمتد إليها لتبددها، وحينئذٍ يكون قد رفض حمل الأمانة.

ورد الفعل الثالث: أن يبدى الإنسان استعداداً وتقبلاً لتحمل الأمانة، فإذا أصيب بضيق مادى، أو احتاج لشيء، امتدت يده إليها ليأخذ منها، على أساس أنه سيعيد

ما أخذ، ثم يفاجأ عند مجيء موعد الرد بأنه لا يستطيع أن يرد الأمانة فينكرها.

هذا هو المعنى العام للأمانة التى حملها الإنسان، وهى منهج الله فى الأرض، وحرية الاختيار فى أفعل ولا تفعل، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد أوضح الله سبحانه وتعالى الأمانة بمعناها الواسع فى القرآن الكريم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومعنى ذلك أن الدين هو الذى يقوم عليه صك مكتوب أو ورقة مكتوبة ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

عرض الله على السماوات والأرض والجبال وغيرها أن تحمل منهج الله، وأن يأتمنها الله على هذا المنهج، ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل، وأن تأتى إليه عن اختيار وعن حب وليس عن قهر، فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم، وإن خالفت المنهج ولم تفعل بقيت خالدة فى النار، ولكن كل هذه المخلوقات رفضت أن تحمل الأمانة؛ وقالت: يا رب إننا نخاف ونشفق على أنفسنا ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريدنا أن نحمله، ولذلك يا رب اجعلنا مقهورين على طاعتك غير مختارين أن نعصى، ولكن الإنس والجان قبلوا أن يحملوا هذه الأمانة؛ وقالوا: يا رب نحن قادرون، وسنكون أمناء على المنهج ونطيع ولا نعصى، وعندما بدأت المهمة لم يقدر كثير من الناس على حمل أنفسهم على الطاعة، وخانوا الأمانة.

ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان حين حمل الأمانة بوصفين: بأنه ظلوم، أى كثير الظلم، وجهول، أى إنه عظيم الجهل؛ لأن الإنسان ظلم نفسه فحمّلها ما لا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحمله؛ ولأن بنى الإنسان يريد أن يتميز واحد منهم على غيره، وأن يغتر بنفسه، بينما يجب أن تتحد أهدافهم فى طاعة الله، لذلك كان الإنسان كثير الظلم وهو ليس ظالماً، ولكنه ظلوم لأنه يظلم نفسه فيمنعها من نعيم مقيم من أجل متعة مؤقتة تعطيها له معصية، وظلمها ثانية بأن منعها من الجنة؛ ولأنه وهو يعلم يقيناً أنه تارك كل شىء فى الدنيا يريد أن يملك ويملك، ويرتكب فى سبيل ذلك معاصى كثيرة، ولو تنبه فإنه يدرك أنه لا يخرج من الدنيا بشىء إلا ذنوبه.

لماذا كان الإنسان جهولاً؟ أى عظيم الجهل؛ لأنه استهان بعذاب الله، ذلك

العذاب محجوب عنا، ولو رأيناه ما نطق لسان بمعصية، ولا امتدت يد إلى مال حرام، ولكن لأن هذا العذاب أُخفِي عنه، ظن الإنسان أنه لا علم إلا علمه، ونسى علم الله الواسع الذى لا تحده حدود، وقدرة الله التى لا تفوقها قدرة، وهو جهول؛ لأنه بقدر ما أعطاه الله من علم ومن ذكاء، عبد أشياء لا تنفع ولا تضر، فعبد الحجر، وعبد الشمس، وعبد النار، وعبد الحيوانات، وعبد الدنيا، ولو أنه كان يعقل ولا يجهل، لعلم أن هذه المخلوقات كلها أدنى منه، وأن الله سخرها كلها لخدمته، فكيف يعبد الأعلى الأدنى؟

ولأنه جهول عبد الدنيا وهو مفارقها، والخالق لا يفارق مخلوقه.

مع أن الله سبحانه وتعالى حين حَمَّلَهُ الأمانة أعطاه العقل الذى يميز به، وجعل هذا العقل أساس الحساب، بحيث يتوقف الحساب حين يتوقف العقل عن أداء العمل، فالمجنون يسقط عنه التكليف، ولا يُحاسب، والطفل الذى لم يبلغ الحلم والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يُفرق أو يميز لا يجرى عليه القلم، فلقد حَرَّم الله كل ما يُعطل العقل ويفسده؛ حرم الخمر تحريماً قاطعاً، لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة، وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات، لأن مقومات الشريعة الإسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الإلهى الذى ميز الله به الإنسان وهو العقل، واختيارات العقل هى التى تشقى الإنسان أو تسعده فى الحياة، وتقوده إلى الجنة أو النار، فالغريزة لها انفعال واحد، أما العقل فأمامه بدائل كثيرة، فالإنسان مثلاً إذا آذى كلباً فإنه يعضه بلا انفعال آخر، وكلما أوذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه، و الحصان مثلاً يرفس من يؤذيه، انفعاله له شيء واحد لا يتغير، ولكن الإنسان إذا ضربه إنسان آخر؛ فإن أمامه عدة بدائل، إنه يستطيع أن يرد الضربة بمثلها، أو بأشد منها، أو بأقل منها، أو أن يصفح عمن ضربه، أو يكتفى بتوبيخه. هناك بدائل لا حدود لها موجودة عند الإنسان وحده، هذه البدائل يضعها العقل وليست الغريزة.

والإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته مطالب بالاختيار، إذا قمت بهذا العمل فهل أُوفق فيه؟ وأنا فى ضيق مالى أترك وظيفتى وأبدأ عملاً آخر؟ وإذا أفلست فماذا يحدث؟ هل أبيع السلعة أم أبقيها؟ ربما يرتفع سعرها فأكسب أكثر، وربما انخفض سعرها فتكون الخسارة كبيرة، وهكذا يظل الإنسان يعانى فى كل أحداث الحياة، وهنا يصطدم المنهج مع ما تريده النفس مع الخوف من الدنيا، هل أرضى صاحب النفوذ وأغضب الله لأربح مالاً؟ هل أشهد الزور وأكذب لأحصل على ترقية؟ وهنا يكون الصراع بين هوى النفس وبين منهج الله، والإنسان المؤمن تتحد مراداته فى الحياة الدنيا، مع مرادات منهج الله سبحانه وتعالى منه، فهو يتبع ما أمره الله به فيكون قد أدى الأمانة التى حملها وحصل على السعادة فى الدنيا والآخرة، يُخلص نفسه من هذه الصراعات كلها، ويعلم أن الله قادر على أن يحميه وعلى أن يحقق له ما يريد فيتبع الحق ويقول الصدق ولا يخشى إلا الله.

أما الإنسان الذى يخون الأمانة، ويعصى الله، وجرى وراء كسب دنيوى دون ما إيمان حقيقى فى نفسه، فيكون قد خسر الدنيا والآخرة، فلا يمكّنه الله مما يتمناه فى الدنيا، ويكون من أهل النار فى الآخرة، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى سلوك هذا الإنسان بقوله: ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

وبعد أن تحدثنا عن الخلق والحياة، ومهمة الإنسان فى الحياة، لابد أن تكمل الحديث بمغادرة الإنسان للحياة، فكما أن هناك حياة، وأن هناك مهمة فى الحياة حملها الإنسان واتتمنه الله سبحانه وتعالى عليها ليؤديها، فلابد أن تكون هناك مغادرة لهذه الحياة، ثم حساب على ما فعلناه.

ولكن قبل أن ننتقل إلى الحديث عن الإنسان وهو يغادر الدنيا، لابد أن نتوقف لحظة لنقول: إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليأتيه عن حب واختيار ولم يخلقه ليأتيه بالقهر و الجبر، ذلك أن القهر يُسقط الحساب حتى فى قمة العقيدة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣].

ولذلك فإنه لكى يكون الحساب عدلاً فإنه لابد أن يتم الفعل بإرادة الإنسان ورغبته وبلا إكراه، وعندما تأتى ساعة مغادرة الدنيا تكون كل أفعال الإنسان التى يأخذها معه برغبته وبإرادته الحرة.

والخلق والموت والبعث كل هذا موجود فى علم الله وواقع، ولذلك فإننى أقول دائماً إننا يجب أن نتنبه إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

ولابد أن نتنبه هنا إلى قول الله تعالى: ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُۥ ﴾ أى إن الشىء كائن وموجود فى علم الله سبحانه وتعالى، فإذا قال له، أى قال لهذا الشىء الذى له وجود فعلى فى علم الله ﴿ كُن ﴾، ظهر لنا فعلمناه أو رأيناه أو اكتشفناه.

إذن.. فكل ما فى الكون من موت وحياة وبعث وأحداث تقع، كلها موجودة فعلاً فى علم الله تعالى، ولكننا لا نعلم عنها شيئاً إلا عندما تأتى مشيئة الله بكلمة ﴿ كُن ﴾، هذه هى الحقيقة التى لابد أن نتنبه لها أولاً حتى نعرف أن علم الله شامل لكل شىء ولا حدود له.

نلاحظ ونحن نتكلم عن الموت والحياة، أن الله سبحانه وتعالى جعل الموت سابقاً للحياة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

فلماذا سبق الموت الحياة في هذه الآية؟ الله سبحانه وتعالى يريد أن يُلفتنا في هذه الآية لكيلا يأخذنا غرور الدنيا وما تعطيه، فإذا اغتر الإنسان بما يعطيه الله له من مال أو ملك، أو ما أعطاه الله له في الدنيا من نعم، فتأتي هذه الآية فتوضح أنه كان ميتاً فأحياه الله فلا يغتر بهذه الحياة، ولا يملأ الأرض بالمعاصي، لأنه وإن كان له كيان اليوم، فلم يكن له كيان فيما مضى أو حياة، ومصيره مرة أخرى إلى ترك هذه الحياة مهما طال به الأجل، وترك ما فيها من نعم.

فالغرور الإنساني هو بداية المعصية، ودائماً عندما يغتر الإنسان بنفسه ويملؤه الفخر بذاته وقدراته، فإنه يبدأ الابتعاد عن الله تعالى والابتعاد عن المنهج، فما دام قادراً على أن يحقق لذاته ما يريد فقد أصبح بتصوره أنه ليس محتاجاً إلى الله، ومن هنا تبدأ المعصية، فالإنسان الذي يحس أنه في حاجة دائمة إلى الله تعالى يبقى دائماً متعلقاً بالله، متبعاً لمنهجه، فإذا أحس أنه في منعة وعزة، بدأ يبتعد وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٣].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ [العلق].

وقوله جل جلاله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

إذن.. ما دام الإنسان في ضر فإنه لا يتجه إلا إلى الله، حتى ذلك الذي ينسى الله ويبتعد عن المنهج، بمجرد أن تصيبه محنة أو ضر أو أزمة، يرفع يديه إلى السماء ويقول: يا رب، وفي هذه الحالة يكون الإنسان صادقاً مع نفسه لأنه يعلم يقيناً أن الأمر كله بيد الله، ويعرف أن كل ما اتجه إليه من نعم الدنيا وأسبابها لم يستطع أن يعطيه الحماية التي كان يريدها، أما إذا اغتر الإنسان وأحاطت به النعم، فإنه ينسى الله ويأخذ بالأسباب، ويفعل كما فعل قارون؛ ويقول: إنما أوتيته على علم عندي.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى من خصائص الموت ما يجعل الإنسان يفيق من غرور الدنيا، ويذكره بقدرة الله سبحانه وتعالى، فأخفى الله موعد الموت، لماذا؟ حتى يتوقعه الإنسان في أية لحظة، فكلما اغتر.. تذكر أنه قد يفارق الدنيا بعد ساعة أو ساعات، فرجع عن غروره، ورجع إلى الله سبحانه وتعالى.

ولو كان الله قد أعلم كلا منا بأجله وعصينا الله، وطغينا في الحياة، وظلمنا الناس ثم نتوب ونستغفر قبل موعد الأجل بأشهر، في هذه الحالة تنتفي الحكمة من الحياة.

وإخفاء الله سبحانه وتعالى موعد الموت هو إعلام به، ذلك أن إخفاء الموعد يعني

أن الإنسان يتوقع الموت فى أى لحظة، ولذلك فإنه إذا كان عاقلاً تكون إحدى عينيه على الدنيا وعينه الأخرى على الآخرة، فإذا ارتكب معصية فهو لا يعرف هل سيمد الله أجله إلى أن يرتكب المعصية ويتوب، أم أن أجله قد يأتى وقت ارتكاب المعصية فلا يجد الوقت للتوبة.

وما يقال عن المعصية يقال عن العمل الصالح، فلو أن موعد الموت معلوم لأجَّلَ الإنسان العمل الصالح إلى آخر حياته، ولكن الله يريد أن يكون الصلاح ممتداً طوال الزمن، ولذلك أخفى موعد الموت ليُعجل الناس بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى الأجل، فكأن إخفاء الموعد فيه رحمة من الله للبشر، رحمة بأن يخافوا المعصية أن تأتى مع الأجل، ورحمة بأن يسارعوا فى الخيرات حتى لا يفاجئهم الأجل.

نأتى بعد ذلك إلى ساعة الاحتضار، وهى الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد، أو سكرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى، فى هذه اللحظة تكون قد انتهت حياة الاستعلاء، وحياة الكبر، وكل مظاهر الحياة الدنيا، وكل ما تستطيع الحياة أن تعطيه لإنسان، تقف الدنيا كلها بكل مَنْ فيها وما فيها من علم، وقوة، ونفوذ، وسلطان عاجزة أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، ففى هذه اللحظة يأخذ الإنسان مقدمات الغيب، أى إن الإنسان وهو يحتضر يرى أشياء ما كان يقدر أن يراها فى أثناء الحياة الدنيا، لماذا؟ لأن بشريته الآن قد خمدت، وما دامت البشرية قد خمدت، تهب نفحات الغيب، وهذا هو معنى الآية الكريمة: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. أى ما كنت تريد ألا تتذكره أو تعترف به.

فى هذه الحالة لا تنفع التوبة، ولا يجدى الاستغفار، فما دامت سكرة الموت قد جاءت، فقد انقطع عمل الإنسان الدنيوى.

والله سبحانه قد ذكر لنا أشياء تحدث للإنسان وهو يحتضر، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝﴾ [الواقعة].

أى إن الإنسان وهو يحتضر، يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله، وهم إذا كانوا يقفون حوله فإنهم لا يبعدون عنه إلا مسافات قصيرة، فإنه يرى أشياء لا يرونها، ويرى مقدمات للغيب لا يبصرها من حوله، ويرى الملائكة، واقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام].

هكذا نرى أن الإنسان ساعة الاحتضار يرى الملائكة، ويكلمونه فإن كان من الذين

عصوا الله، والعياذ بالله، بشرته الملائكة بالعذاب، وبشرته بجهنم، وهو فى هذه اللحظة لا يراهم فقط، بل يسمع كلامهم.

على أننا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾.

والنفس - كما قلنا - هى التقاء الروح بالجسد، فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه؟ لكى نفهم هذه الآية لابد أن نضع فى أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا بالله، ومكذبا بالبعث، وحينئذٍ وهو يحتضر تقول له الملائكة: هأنتذا الآن ترى ما كنت تُكَذِّبُ به، وترى العذاب الذى ينتظرك، فإن كانت لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى فى الحياة الدنيا، فأخرج نفسك من هذا، اهرب إذا كنت تستطيع، خلص نفسك إذا كانت لك قوة أو نفوذ، إنك لا تستطيع فى هذه اللحظة أن تخرج نفسك مما أنت فيه، فلم تعد لك قدرة على أن تسيطر على ذلك، لقد كانت هذه القدرة من الله سبحانه وتعالى وهبها لك فى الحياة الدنيا، ولكنك الآن لا تملك لنفسك شيئاً، ولا ينتظرك إلا العذاب لما كنت تقول على الله غير الحق، وتستكبر فى الأرض.

وفى هذه اللحظة أيضاً تُذكر الملائكة هذا الإنسان الكافر المنكر لآيات الله، بأنه قد جاء إلى الموت وحده وليس معه عصبته، ولا عزوته فى الدنيا، وحيداً كما تم خلقه، حتى الآلهة التى أشرك بها قد تخلت عنه، وحتى الذين كان يعصى الله من أجلهم لم يأتوا معه، ولا يستطيعون أن يدافعوا عنه، ثم تكتمل الصورة بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾ [الأنفال].

أى إنه ساعة الاحتضار يكون هناك ضرب وإيذاء من الملائكة للكافرين.

والمعروف أن أى نوع من العذاب لا يتم إلا مع وجود الحياة، فأنت لا تستطيع أن تُعذب جسداً ميتاً، ولكن لكى يحس الجسد بالعذاب؛ لابد أن تكون فيه حياة أو روح؛ أى إن ما يحدث من الملائكة معه من ضرب وإيذاء إنما يحدث ساعة الاحتضار وفى الجسد حياة.

وانظر بعد ذلك إلى الصورة المقابلة فى الصالحين الذين تتوفاهم الملائكة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

أى إن الإنسان الصالح حين يصل إلى ساعة الاحتضار، يرى الملائكة أيضاً، فكل إنسان وهو يحتضر يرى ملائكة الموت، ولكن اللقاء يكون مختلفاً، فبينما الكافر يضرب الملائكة وجهه ودبره ويقولون له: ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، فإن الإنسان المؤمن تدخل عليه الملائكة بالبشرى، ويقولون له سلام عليكم، أى إنت وصلت إلى دار السلام بأمان ويبشرونه بالجنة.

هنا فى ساعة الاحتضار يفترق المؤمن والكافر، وذلك بخلاف الحياة الدنيا كلها، ففى الحياة الدنيا قد يكون الكافر له من الحياة والسلطان ما ليس للمؤمن، وقد يكون له من العلو والترف ما ليس للمؤمن، ولكن تبدأ التفرقة بينهما ساعة الاحتضار. فيرى الكافر الملائكة وقد جاءوا بمقدمات الجزاء، وانهالوا عليه ضرباً، ويرى المؤمن الملائكة، وقد جاءوا بمقدمات النعيم وبشروه بالجنة، فيرى الكافر النار، ويرى المؤمن الجنة.

حينئذ لا تنفع التوبة، وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ [النساء].

أى إن ساعة الاحتضار - كما قلنا - لا تقبل فيها التوبة، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢].

أى إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بأن الإنسان يرى الملائكة، ومقدمات الغيب فى ساعة الاحتضار، وفى هذه الساعة لا تنفع التوبة، والإنسان وهو يحتضر يعلم موقعه، هل هو من أهل النار أم من أهل الجنة، تلك هى لحظات نهاية الحياة.

حينئذ ينتقل الإنسان من حياة إلى حياة، أو من قانون إلى قانون.

❁ ❁ ❁

القرآن.. وأول أيام الدار الآخرة

عندما ينتقل الإنسان من الدنيا، وينتهى فيها عمره، يكون قد بدأ أول أيامه من رحلة الآخرة، ذلك أن كل من يخرج من الدنيا تنتهى صلته بأحداثها تماماً، ولا يصبح أمر الدنيا هو شغله، بل ينقطع عمله إلا من علم ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له. كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له»[1].

هذه الأشياء الثلاثة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، هى امتداد لعمل الإنسان فى الدنيا، والعلم الذى ينتفع به هو امتداد لعلم اجتهد فيه الإنسان فى حياته الدنيوية، ثم علمه للناس وتركه لينتفع الناس به، فهذا النفع هو اتصال لعمل الإنسان ويكون له جزاء عليه.

ولكن هناك شرط لهذا العلم هو أن يكون لوجه الله سبحانه وتعالى، أو يقصد به الله؛ فكل عمل يقوم به الإنسان ولا يقصد به وجه الله ليس له أجر عند الله، وهذا كما قلت مبدأ لابد أن نفهمه، لأنك تأخذ أجرك فى الدنيا وفى الآخرة ممن عملت من أجله، فلا يعقل أن تعمل عملاً لإنسان ثم تذهب لتطالب شخصاً آخر بأجرك، هذا لا يتفق مع منطق الوجود، وكذلك تعمل عملاً لغير الله ثم تطلب من الله أجرك فى الآخرة، وكثير من الناس الذين قدموا خدمات للإنسانية ولم يكن فى بالهم الله وهم يقومون بهذا العمل، أعطاهم الله أجرهم فى الدنيا، فأطلقت أسماؤهم على الميادين والمدن، وأقيمت لهم حفلات التكريم، واحتفل الناس بذكراهم، وكان من عدل الله أن يوفيهم أجرهم فى الدنيا التى عملوا عليها وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [هود].

وليس معنى أن يكون العلم من علوم الدين وحدها، أى إن أى إنسان مؤمن يصل إلى علم وفى باله الله، وأنه يعمل ليُرضى الله واستفادت الدنيا كلها بعلمه، فإن الله يؤتيه أجره؛ لأنه لم يعمل من أجل مال، أو جاه، أو شهرة، رغم أن هذه قد تأتى، ولكنه يعمل

---

(١) روى الترمذى [١٣٧٦]، وأبو داود [٢٨٨٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، وصححه الألبانى.

من أجل الله، أما ذلك الذى لا يحمل فى قلبه أى نوع من الإيمان ويعمل من أجل الدنيا وحدها وهو غير مؤمن بالآخرة، فإن الله يؤتيه أجره فى الدنيا.

أما الصدقة الجارية فهى مال الإنسان الناتج من عمله ورزقه، وبدلاً من أن ينفقه فى أن يبنى له قصرا، أو فى الترف، أو فى الإفساد فى الأرض، ينفقه فى عمل يبتغى به وجه الله وحده، كأن يبنى مسجدا، أو يقوم ببناء دار يسكن فيها الفقراء مجاناً، أو ملجأ للأيتام، أو يرصد إيراد ما يملكه لينفق فى سبيل الله، وما دام هذا العمل قائماً فى الدنيا فإنه يصل إليه أجره فى الآخرة.

وولد صالح يدعو له، هو جزاء من الله على حسن تربية الأبناء على منهج الله، بحيث ينشأون صالحين، ومن علّم ابنه القرآن وحرص على أن يؤدى هذا الابن الصلاة، وحثه على الصدقة وكل عمل طيب، فإن هذا الابن الذى هو امتداد للأب يكون دعاؤه مقبولاً رحمة لأبيه وزيادة فى حسناته، وذلك حتى نحرص على أن يشب أولادنا على الفطرة السليمة والدين القويم.

هنا قد يتساءل بعض الناس: ما نوع الحياة التى ينتقل إليها الإنسان فى قبره وقبل البعث؟ نقول لهؤلاء جميعاً: إن كل حياة خلقها الله لها قوانينها؛ فإذا انتقلنا إليها نعرف هذه القوانين، ولكى يقرب الله سبحانه وتعالى هذه الصورة إلى الأذهان ويجعل العقول تستوعبها، جعل للحياة قانونين مختلفين تماماً قانون اليقظة وقانون النوم.

فأنت حين تكون مستيقظاً تخضع حياتك لحواسك، فترى بعينيك وتسمع بأذنيك، وتمشى بقدميك إلى آخر ما يحدث بالنسبة لكل فرد فينا، فإذا دخلت إلى النوم انتقلت من هذه القوانين كلها إلى قوانين مختلفة تماماً.

فأنت حين تنام فإنك تفقد تماماً عنصر الزمن؛ لأن الزمن لابد له من أحداث تحدده، فإذا لم تكن هناك أحداث فقدت إحساسك بالزمن، ولذلك فإن الإنسان إذا نام، لا يعرف ساعة يستيقظ كم ساعة قضاها فى النوم إلا إذا نظر إلى الساعة، ولا نجد إنسانا يستطيع أن يقول لك إنه نام ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً أو سبعاً إلا إذا أخبرته أنت، أو إذا نظر إلى الساعة، أو إذا تغير الزمن بأن يكون قد نام والشمس مشرقة وقام والليل قد جاء، إذن.. ففى قوانين الحياة النوم يلغى الزمن.

وأنت نائم ترى فى المنام أشياء عجيبة لا تراها فى الدنيا، وتجد نفسك فى أماكن غريبة لم تشهدها من قبل، وتلتقى بعدد من الناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة، تتكلم وتتحدث معهم، وربما رأيت نفسك تقفز من جبل عال وتسقط فى واد عميق ولا تصيبك كسور ولا تحس بآلام، وتقع لك أحداث لا تتفق مع منطق الحياة ولا قوانينها، فتجد نفسك مثلا فى الهواء بدون طائرة، أو تهبط إلى باطن الأرض، أشياء لا تتقيد بمنطق ولا بقوانين حياة اليقظة فى الدنيا.

والعجيب أن ذلك يحدث لك وكل حواسك مُعطّلة، فأنت ترى وعيناك مُغْمَضتان، والعين حين تغمض فى اليقظة لا ترى، وأنت تجرى ورجلاك ساكنتان فوق السرير، وسكون وحركة القدمين يتنافى مع الحركة فى حياة اليقظة، فإذا كنت متيقظاً وقدماك ساكنتان فأنت لا تتحرك، وترى نفسك وأنت خارج هذه النفس فالإنسان فى حياته الظاهرة لا يرى نفسه وهو خارجها، وتتكلم ولسانك لا يتحرك وفى الحياة الظاهرة إذا سكن لسانك امتنعت عن الكلام، كل هذا يطرح أكثر من تساؤل كيف ترى وعيناك مغمضتان إذا كان الإنسان لا يرى إلا بعينيه، إذن.. فهناك رؤية بغير العين، أى إن وسيلة الرؤية التى وضع الله أسرارها فى جسدك تعتمد على العين فى الحياة الظاهرة فقط، أما وأنت نائم فإن هناك ملكات أخرى ترى، وهناك ملكات أخرى غير قدميك تتحرك، وهناك ملكات أخرى غير لسانك تتكلم، والقوانين التى تحكمك وأنت نائم تختلف تماماً عن القوانين التى تحكمك وأنت فى حياة اليقظة، ومع ذلك فأنت أنت الإنسان نفسه الذى ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد أن يضع جسده على السرير وينام.

وتحاول أن تجد تفسيرا لذلك كله فلا تستطيع، بعض الناس يقول: إنه العقل الباطن، والبعض الآخر يقول إنها رغبات مكبوتة، كل إنسان يفسر كما يريد، ولكن أين هى الحقيقة؟ لا أحد يعرف ذلك يقيناً إلا أننا حين ننام لا نتبع قوانين حياة اليقظة، فإذا كان الإنسان ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد النوم، فكيف لا ينتقل من قانون إلى قانون عندما تنتهى حياته فى الدنيا ويبدأ الحياة فى البرزخ؟ ولا أحد يعرف ما هى القوانين التى تحكم الإنسان عندما يغادر الحياة الدنيا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى من كفار قريش بعد موقعة بدر، وعندما سأله الصحابة: أتكلم الموتى يا رسول الله؟ قال: «إنهم يسمعوننى، ولكنهم لا يستطيعون الرد»[1]. وكلم الموتى وهم فى قبورهم وكان يسمعهم، ولكن هذه خاصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قيل إن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كلم أصحاب القبور فى البقيع، ولكن كل هذه الخصوصيات

---

(١) روى البخارى [١٣٧٠] والنسائي في المجتبى [٢٠٧٤] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: اطلع النبى صلى الله عليه وسلم على أهل القليب فقال: «وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقيل له: تدعو أمواتا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون». وروى مسلم [٢٨٧٣/ ٧٦] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله». قال فقال عمر: فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض. فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقا. قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئا».

لمن أراد الله سبحانه وتعالى أن يفتح له باباً من أبواب الغيب، ولا يمكن أخذها على أساس أنها عمومية يستطيعها كل إنسان، أو يقدر عليها كل منا، فهى تختص بصاحبها فقط، ولذلك يجب ألّا تُعمم، وإنما تنقل عمن قالها ونصدقها ما دام قد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها مروية عنه.

أما نحن فيقف عملنا عند حد أن هناك حياة خاصة فى البرزخ، لها قوانينها الخاصة، ولها طبيعتها الخاصة، كما أعطانا الله سبحانه وتعالى قانون النوم، وقانون اليقظة ليعرفه كل منا فنخرج من ذلك بأن هناك أشكالاً متعددة أو أطواراً للحياة يمر الإنسان بها فى مراحل مختلفة، كل له قانون يحكمه كما أن لكل خلق من خلق الله قوانين تحكمه.

على أننا إذا أردنا أن نأخذ مثلاً من القرآن؛ بأن هناك حياة بين الموت والبعث فإننا نأخذ ما رواه الله لنا عن آل فرعون كتنبيه لنا عن حياة البرزخ، يقول الله سبحانه وتعالى فى آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

عندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، فإن فى ذلك إشارة إلى أن هناك زمناً، فالغدو والعشى أوقات، وهذا من صفات الزمن ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾.

إذن.. عرض آل فرعون على النار لا يكون يوم القيامة، فإن هناك زمنا يُعرض فيه آل فرعون على النار، ثم هناك زمن آخر عندما يأتى موعد يوم القيامة يدخلون أشد العذاب. إذن.. العرض غير قيام الساعة الظرفان مختلفان، وبذلك نرى أن هناك حالتين: حالة عرض على النار، وحالة إدخال آل فرعون أشد العذاب يوم القيامة.

وإذا كنا نريد أن نمضى فى معرفة معنى الآية الكريمة؛ فإننا نقول: إن الأزمان يمكن أن نحددها نحن بثلاث؛ هى: حياة الإنسان، وما بين الموت والبعث، ويوم تقوم الساعة. من خلال هذه الأزمنة الثلاث نحاول أن نحدد متى يتم العرض على النار غدوا وعشيا متى؟

هل كان آل فرعون يعرضون على النار وهم فى الحياة الدنيا؟ ثابت أنه لا.. فقد كان فرعون عالياً فى الأرض، ونصب نفسه إلهاً يُعبد، واستخف قومه فأطاعوه، وكل الأحداث التى رواها القرآن الكريم عن قصة فرعون وموسى تنفى تماماً أن العرض كان فى الحياة الدنيا، ولو أن آل فرعون عرضوا ولو مرة واحدة على النار فى الحياة الدنيا ما عبدوا فرعون ولو دقيقة واحدة، بل لكانوا قتلوه، ولو أنهم عرضوا على النار مرة واحدة فى الحياة الدنيا لآمنوا وسجدوا لله تعالى.

إذن.. لم يبق من الأزمنة إلا زمنان: حياة البرزخ، ويوم القيامة، يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، ومن هنا انتفت حالة أنهم يعرضون على النار يوم القيامة، إذن.. فلابد أنهم يعرضون على النار فى حياة البرزخ، وقد اختص الله آل فرعون بهذا العرض

لِتَجَبُّرِهِمْ وعبادتهم لفرعون، وادعاء فرعون الألوهية؛ لأنها ليست معصية أوامر ولكنها معصية آمر، فباقي الأمم عصوا الأوامر، ولكن آل فرعون عارضوا الأمر على الألوهية وأنكروها، فلذلك كان لهم أشد العذاب، وكانت حياتُهم في البرزخ يعرضون فيها على النار.

هذه صورة من حياة البرزخ يرويها لنا القرآن الكريم، وهناك صور أخرى حجبها الله عنا في الغيب، وكون الله سبحانه وتعالى قد أعد لآل فرعون أشد العذاب ولم يدخلهم النار إلا يوم القيامة دليل على أن العذاب الحقيقي يبدأ يوم القيامة، وأن الإنسان في قبره يعرف مصيره، يعرف حسناته وسيئاته، يعرف مقامه من الجنة أو من النار، ويرى مقعده ومنزلته فيهما، فإذا عرف أن مقامه في النار، فذلك عذاب ما بعده عذاب لأنه قد عرف يقيناً إلى أين يذهب، ولذلك فإن هذا العذاب يجعله في قبره وكأنه يتقلب في النار حين يرى مصيره الأكيد، يعيش في ظلمة، ويعيش في كرب ما بعده كرب، وحين يرى المؤمن مقامه أو مصيره في الجنة، فإن ذلك نعيم ما بعده نعيم لأنه يحس وكأنه يعيش في الجنة ونعيمها.

إذن.. فالعذاب الحقيقي لا يأتي إلا بعد الحساب، ولكن في القبر يكفي أن الإنسان يعرف أن مصيره إلى النار ليعيش في عذاب مقيم، ويكفي أن الإنسان يعرف أن مصيره إلى الجنة فيعيش في نعيم مقيم.

القرين.. وهل يلازم الإنسان حتى الموت؟

نأتي بعد ذلك إلى ما يقال عن القرين، ولقد سمعنا أشياء كثيرة تقال عن القرين وكيف أنه يلازم الإنسان في حياته، وأنه يعيش مدة أطول منه، وأنه عندما يمارس الناس مسألة تحضير الأرواح فإن هذا القرين هو الذي يأتي وهو الذي يتكلم.

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا في فهم معنى القرين، والله شرح لنا ما المقصود بالقرين، ومن هو القرين في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝﴾ [الصافات].

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۝﴾ [الزخرف].

وقوله عز وعلا: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بين لنا معنى القرين بما لا يقبل الشك أو التأويل، فالقرين هو من شياطين الإنس والجن ومهمته أن يبعد الناس عن الصراط المستقيم، وأن يزين لهم معصية الله، وأن يوسوس لهم بالسوء، وأن يغويهم إلى طريق المعصية، هذه هي مهمة القرين كما أوضحها الله سبحانه وتعالى لنا في القرآن الكريم، فكل من يصد عن سبيل الله ويحاول أن يبعد الناس عن منهجه، فهو قرين.

ولكل إنسان منا قرين يحاول أن يدفعه إلى طريق النار، ويُدخل إلى قلبه الشك في الإيمان ويزين له عبادة الدنيا حتى إذا جاء يوم القيامة تبرأ هذا القرين من الإنسان، وقال: يا رب أنا لم أجعله يطغى، ولم أزين له طريق المعصية، ولكن هَوى نفسه هو الذي دفعه إلى هذا الطريق، فبُعده عن المنهج، هُو الذي جعله ينحرف، وهكذا يحاول كل من الإنسان العاصي وقرينه أن يُلقي اللوم على الآخر، أما القول بأن هذا القرين هو شبيه بالإنسان، وأنه يلازمه طوال حياته ويعيش أكثر منه؛ فذلك لم يثبت إلا إذا كان المقصود أن القرين يظل يوسوس للإنسان بالسوء طول حياته، ويحاول أن يمنعه من العمل الصالح، ومن العبادة ويظل يطارده ويلاحقه في كل مكان، ويدفعه إلى المعصية.

وعلى أية حال . . الثابت من القرآن الكريم أن القرين هو من شياطين الإنس والجن الذين يدفعون الناس إلى معصية الله، وإلى طريق النار، وأن لكل إنسان قرينا يدفعه إلى هذا الطريق، وأن بعض الناس يستمعون إلى هذا القرين ويمضون فى طريق البعد عن منهج الله وبعض الناس لا يستمعون إلى القرين ولا يبالون به وبذلك يكونون من أهل الجنة وبهذا ضرب القرآن مثلاً عندما سأل واحد من أهل الجنة عن القرين الذى كان يوسوس له بالسوء فاطلع فرآه فى سواء الجحيم أى فى وسط النار ومعنى ذلك أن هذا القرين قد أخفق فى أن يقود المؤمن إلى طريق الهلاك وهذا واضح من الآيات التى أوردناها .

النفخ فى الصور

كل شيء فى هذه الدنيا له كيان، ولابد أن نعرف أن الموت له كيان، وإذا كنا لا نراه أو لا نشهده فذلك لأنه محجوب عنا، وكل شيء فى الدنيا هناك ملك موكل به، والملائكة تتولى الإنسان منذ خلقه حتى موته، حتى بعثه.

وهناك خلق كثير وأشياء كثيرة لا نراها، ذلك أننا محدودون ببشريتنا؛ ولذلك فإننا لا نرى إلا ظاهرا من الحياة الدنيا. ذلك الظاهر الذى يمكننا من أن نؤدى فترة الاختبار التى تمثلها الحياة الدنيا فى مراحل الحياة، والناس فى أطوار الحياة المختلفة سواء فى الحياة الدنيا أو البرزخ، لهم الحياة التى تتناسب مع قوانين تلك المرحلة، ولا يموت كل من فى الدنيا من مخلوقات إلا عندما ينفخ فى الصور، وينبهنا الله تعالى إلى هذا المعنى فيقول: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ولا أحد يعرف إلا الله سبحانه وتعالى ما هو الفارق بين النفخة الأولى، والنفخة الثانية، والله وحده هو الذى يعلم ذلك.

فترة الموت تستمر ما بقيت الدنيا، أي: حتى يوم القيامة، بمعنى: أن ملك الموت أو ملائكة الموت يظلون يؤدون أعمالهم فى قبض الأرواح حتى قيام الساعة، وكل إنسان موكل به ملك موت معين ليقبض روحه فى لحظة محددة معينة، ويقال إنه عندما يطلق سهم الحياة يطلق معه سهم الموت، ويظل ملك الموت يبحث عن ذلك الموكل بأن يقبض روحه، إلى أن يأتى الأجل فيهديه الله إلى مكانه.

❁ ❁ ❁

الموت.. بلا أسباب

ولقد جعل الله لكل شيء سببا، ما عدا الموت، فالموت يأتي بلا أسباب، قد يكون أجل الإنسان وهو في بطن أمه لم ير الدنيا بعد، وقد يكون عمره في الدنيا ساعة أو ساعتين أو يوما أو شهوراً أو سنوات، فلكل إنسان أجله.

ولذلك فإن بعض الناس قد يقول إنه تشاجر مع إنسان فانفعل ذلك الإنسان ومات؛ وذلك قول خطأ لأن هناك الموت وهناك القتل، والله سبحانه وتعالى قال عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إذن.. فالموت يختلف عن القتل، ولكى نفهم هذه الحقيقة نقول: إن القتل هو هدم البنية الأساسية للإنسان، فالروح لا تبقى إلا في بنية سليمة تناسب بقاءها، فإذا هدمت هذه البنية خرجت الروح، أما الموت فإن له أجلاً محددا لا يتأخر عنه لحظة ولا يتقدم.

والإنسان لا يملك جسده، ولو كان يملك هذا الجسد لكان يسيطر عليه، ولكن معظم نشاطات الجسد الإنساني تتم بدون إرادة منا وبأمر الله؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى عاقب المنتحر بالخلود في النار؛ لأن هذا المنتحر قد قام بهدم بنية هي ليست ملكه، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها وهو الذى يملكها، وللسبب نفسه حرم الله القتل إلا بالحق وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وأوعد القاتل بالخلود في النار إذا تعمد القتل بغير ما شرع الله.

فإذا مات الإنسان خلال مشاجرة مثلاً أو مشادة لم يصب فيها بإصابة قاتلة تهدم بنيته؛ فإنه في هذه الحالة يكون قد تصادف أجله مع هذه المشاجرة، أو هذا الانفعال، أما إذا هدمت بنيته الأساسية يكون ذلك قتلاً يستحق القصاص في الدنيا والآخرة.

ولا يستطيع إنسان أن يعرف ما سيحدث مقدماً إلا الأنبياء، وهم من شاء الله سبحانه وتعالى أن يفتح لهم باباً من أبواب الغيب، لا يعرف إنسان إن كان مصيره إلى الجنة أو النار وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة»(١).

---

(١) رواه مسلم [٢٦٥١/٥١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه.

ومما يُروى فى هذا الصدد أنه فى إحدى الغزوات كان أحد المقاتلين يقاتل مع المسلمين بشجاعة فائقة.. وذهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ممتدحين شجاعة هذا الفارس وإقدامه فى سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو من أهل النار» فتعجب الصحابة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومضت المعركة، وجُرح هذا المقاتل، ولم يتحمل الجرح، فوضع سيفه تحت رقبته وضغطه لينفذ السيف من رأسه فمات، وبذلك مات منتحرا واستحق أن يكون من أهل النار، وعاد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: نشهد أنك لرسول الله، ولكن كيف عرفت أنه من أهل النار؟ قال: كان يقاتل ليقال عنه إنه شجاع، وقد قيل[1]. والمعنى أن هذا المقاتل لم يكن وهو فى المعركة يحارب فى سبيل الله، بل كان يحارب وفى قلبه غرور الدنيا حتى يقول الناس إنه شجاع مِقْدام، ولذلك لم تكن حربه هذه فى سبيل الله، ولكن لإرضاء الغرور الدنيوى.

ومعنى الحديث أنه يعمل أحدكم عمل أهل الجنة، أى إن الإنسان قد يعمل الصالحات فى حياته حتى يصبح قريباً من الجنة ثم يغويه الشيطان ويغلبه بريق الدنيا فيترك العبادة ويترك العنان لشهواته، ويضيع عمله الصالح بالانغماس فى المعاصى وقد يعصى إنسان الله حتى يكاد يصبح من أهل النار ثم يتوب إلى الله فيهدى الله قلبه ويتوب عليه ويغفر له.

❁ ❁ ❁

(١) روى البخارى [٣٠٦٢]، ومسلم [١٧٨/١١١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل ممن يدعى الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الذى قلت له إنه من أهل النار فإنه قد قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إلى النار. قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ولكنه به جراحا شديدا فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: الله أكبر أشهد أنى عبد الله ورسوله ثم أمر بلالا فنادى بالناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

كل العذاب مؤجل إلا ظلم الناس

وكل العذاب فى الدنيا مؤجل إلا ظلم الناس؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى يؤجل للعاصين حسابهم إلى يوم القيامة ماعدا ظلم الناس، فإن الله سبحانه وتعالى يقتص من الظالم فى الدنيا، ذلك أن الله إذا ترك الظالم يستشرى بظلمه انتشر الظلم فى الأرض، وعم الفساد بشكل كبير، فالفساد الأكبر يأتى من ظلم الناس للناس، والله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، ويعطى الظالم الفرصة بعد الفرصة ليتوب، ويأخذه بالعذاب الأصغر عله يرتدع، عله يفيق؛ فإذا استشرى فى ظلمه رغم العذاب الأصغر الذى أراه الله له ثم رفعه عنه؛ فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فلقد أخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه بالعذاب الأصغر أولاً وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

ويقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف].

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ آل فرعون بالعذاب الأصغر قبل أن يهلكهم بالغرق، ولكنهم رفضوا أن يرتدعوا بهذه الآيات، وكلما رفعت عنهم آية من آيات العذاب الأصغر عادوا إلى كفرهم وطغيانهم، ولو أنهم بعد أى آية من هذه الآيات تضرعوا إلى الله وعادوا إليه فربما تقبل الله توبتهم إن شاء.

وهكذا نجد أن الله يأخذ الظالم بالعذاب الأصغر قبل أن يهلكه ويمهله، فإذا تجبر فى الأرض وزاد فى ظلمه؛ فإنه فى هذه الحالة يهلكه، والسماء تتدخل دائماً لتزيل الظلم من الأرض عندما يستكين الناس للظالم، ولا يتحركون لدفع الظلم عن أنفسهم. ذلك أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستشرون عادة فى ظلمهم، ولذلك لابد أن تتدخل قدرة الله فى الحياة الدنيا لتزيح الظالم أو تهلكه، حتى لا يستشرى الظلم فى الأرض، وحتى لا يشقى خلق الله بالظالم حين يزداد فى ظلمه وطغيانه؛ لذلك فالله سبحانه وتعالى حريص على أن يرى المظلوم يوما فى ظالمه، وأن يرى المظلوم هذا الظالم الجبار مجردا من قوته ذليلاً تلفظه الأرض كلها.

ولعلنا شهدنا فى الفترة الأخيرة حكاماً دانت لهم الأرض، واستشرى ظلمهم بشعوبهم وتدخلت إرادة السماء لتنزع عن هؤلاء قوتهم وجبروتهم، وانطلقوا مذعورين خائفين، لا يجدون مكاناً فى الأرض يأوون إليه، رغم عظم ثرائهم، ووفرة المال عندهم، ترفضهم حتى تلك الدول التى كانت تعينهم على الظلم.

مثل كارلوس الذى كان حاكماً طاغياً فى الفلبين، يقتل ويدمر ويقيم المذابح، وبين يوم وليلة وجد نفسه مجردا من السلطان، ترفضه دول الدنيا كلها رغم ما يملك من مال.

إذن.. فالقصاص من الظالم يتم فى الدنيا.

متى يكشف عن بصر الإنسان فيرى الغيب؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

ورد في الحديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1]. والبصر الحديد هو البصر الحاد الذي يدرك إدراكاً أفقاً أوسع لم يكن يدركه، فكل بصر له مدى أفق معين، وعندما يبتعد الشيء عن البصر يصغر ويصغر إلى أن يتوارى ويزول، فلا يعود البصر يدركه، ولكن هل حقيقة أن الشيء يزول؟ لا. الشيء موجود في مكانه؛ ولكن مدى البصر هو الذي يدركه فنعتقد أنه توارى.

والناس في الدنيا لكل منهم مدى بصر معين وحدود لقوة البصر؛ فإذا أتيت بشيء واحد وجئت برجلين: أحدهما ضعيف البصر، والآخر قوي البصر، فإن أحدهما وهو صاحب البصر الأقوى يرى الشيء ولكن ضعيف البصر لا يراه.

ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن هناك أشياء لا نراها في الدنيا، لأن بصرنا الدنيوي محدود، ولكن هذه الأشياء موجودة رغم أننا لا نراها، ورغم أنها غيب عنا، ولا يُخفي هذه الأشياء إلا بصرنا البشري المحدود، فإذا جاء الموت فإنك ترى الأشياء التي كنت تكذبها في الدنيا، فكأن الغشاوة قد رُفعت عن بصرك؛ فأصبحت هذا الأشياء واقعاً في حدود بصرك بعد أن كان على البصر غطاء دنيوي يمنعك من رؤيتها.

وهكذا فإن ما كنت تكذب به تراه الآن وتراه بصرك الذي أصبح اليوم قويا حادا، ولو أنك آمنت بالغيب لرأيت الآن ما آمنت له واقعاً، ولرأيت كل ما ستراه من الغيب الذي حجب عنك رؤية إيمانية، ولكان لك اليوم رصيد إيماني ينجيك من النار، وهذا لوم وتقريع لغير المؤمنين.

أما ما ورد في الحديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

فمعناه أن الإنسان في الدنيا كالنائم الغافل عن الحقيقة، وعما ينتظره في الآخرة. فإذا جاءت لحظة الموت رأى الناس مالم يكونوا رأوا فانتبهوا من غفلتهم الدنيوية التي كانوا فيها نياماً والنائم لا يدري ما حوله، ولا يعرف ماذا يحدث، فلما أفاقوا من غفلة حياتهم الدنيوية تنبهوا إلى المصير الذي هم ذاهبون إليه، ورأوا ما لم يكونوا يرون، ولكن بعد فوات الأوان.

---

(١) ذكره الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء [٤/ ١] وقال: لم أجده مرفوعا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

معجزة القرآن.. وآية الليل والنهار

لا توجد حيرة تملأ حياة الناس كحيرتهم بالنسبة للزمن، ذلك لأنهم عاشوا حياتهم كلها مع الزمن فألفوه، وحددوا أوقاتهم فى الدنيا بالزمن فلم يعرفوا غيره، وكان للزمن تأثير مباشر على حياتهم، فهم يقيسون به أعمارهم، وهم يقيسون به أحداثهم، وهم يتخذونه مقياساً للحياة كلها، فمواعيدهم ولقاءاتهم وإنجازاتهم وكل حياتهم مربوطة بالزمن. يقولون: سنفعل كذا فى يوم كذا، ويقولون: سنتقابل فى الساعة الثالثة أو الرابعة أو السادسة أو فى الشهر القادم، ويحددون عمر ما يفعلونه بالزمن فهذا سيستغرق ثلاثة أشهر، وهذا يستغرق ثلاث سنوات إلى آخر ما نعرفه جميعاً.

بل إن الزمن يسيطر على حركة الحياة، والله سبحانه وتعالى قد خلق النهار للسعى إلى الرزق والعمل، والليل للسكون والهدوء ليستريح الجسد البشرى، ويجدد طاقته لعمل اليوم التالى، وهذا قانون من قوانين الحياة. فالإنسان لا يستطيع أن يعمل ليلاً ونهاراً، ولو حاول ذلك خلال أيام قليلة لضاعت قواه ولم يستطع العمل.

والله سبحانه وتعالى هو خالق الليل والنهار، وجعل الليل سكناً، وجعل آية النهار مشرقة بالشمس، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

وهذا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن العين لا تبصر بذاتها، ولكن لابد أن تدخل إليها أشعة النور لتبصر، فأنت فى الظلام الدامس لا تستطيع أن تبصر شيئاً مهما تكن قوة بصرك ولكنك فى ضوء النهار، أو فى ضوء المصباح تستطيع أن ترى، ولو كان للعين قوة إبصار ذاتية لأبصرت ليلاً ونهاراً.

والليل والنهار مقياس من مقاييس الزمن، ولقد ثار جدل كبير حول خلق الليل والنهار، وأيهما خلق أولاً، هل هو الليل أو النهار؟ ولقد كان الاعتقاد فى الماضى أن الليل قد جاء أولاً، ثم بعده النهار.. ولكن الله سبحانه وتعالى رد على ذلك وصحح هذا المفهوم فى القرآن الكريم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

وهنا رد الله سبحانه وتعالى وصحح مفهوماً خاطئاً كان يقول إن الليل يسبق النهار، ورد الله سبحانه وتعالى بأنه لا النهار يسبق الليل، ولا الليل يسبق النهار، وهكذا بين الله

تبارك وتعالى أن الليل والنهار خُلقا فى وقت واحد، وفى هذا دليلٌ على كروية الأرض، وعلى دورانها حول نفسها.

فلو أن الأرض كانت مسطحة، أو مربعة، أو على شكل آخر، لخلق النهار أولاً ساعة خلق الشمس، ثم بعد ذلك جاء الليل، أو لخلق الليل أولاً ثم بعد ذلك جاء النهار، ولكن كون الأرض كروية، فإن النهار والليل يوجدان معاً على سطح الأرض، ودوران الأرض، حول نفسها هو سر تعاقب الليل والنهار.

واليوم فى حياة البشر هو فترة من الزمن تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس، أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس، بعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم، والبعض الآخر يطلق على الليل والنهار كلمة يوم، وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن تحدّها علامة معينة من شروق الشمس إلى غروبها، أو من شروق الشمس إلى شروقها فى اليوم التالى.

الزمن لا يوجد فى حياة البشر وجودا مطلقاً؛ بل هو وجود نسبى، فكل حدث بالنسبة لنا له زمن محدود، أو ظرف زمان. وله مكان محدود يقع فيه، أو ظرف مكان؛ وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه، ولا يوجد فعل فى العرف البشرى يمكن أن يقع إلا فى زمن معين ومكان محدد، ولا نستطيع نحن أن نستوعب هذا الفعل إلا بالزمان والمكان، فكل إنسان منا له تاريخ ميلاد، ومكان ميلاد، وله تاريخ وفاة. وبغير ذلك لا تفهم الأمور، فنحن عاجزون عن فهم الأمور على إطلاقها.

والإنسان لا يملك الزمن، ولكن الزمن هو الذى يملكه، فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى لتغير شيئاً قد حدث فيه، فما حدث قد انتهى وخرج من قدراتك تماماً، ولذلك فإنك إذا كنت قد ارتكبت أى عمل، كجريمة قتل أو سرقة أو أنفقت مالاً أو تزوجت أو أنجبت امرأتك طفلاً، فإنك لا تستطيع أن تعيد الزمن وتمحو هذه الأحداث حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته، أو لا يوجد الابن الذى أنجبته، أو تستعيد المال الذى أنفقته، وكذلك كل الأحداث.

وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى، فإنك لا تملك القدرة على المستقبل، فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه، ولا ما سيحدث لك من خير حتى تستطيع أن تستزيد منه، ولا الأخطار التى ستقابلها حتى تستطيع أن تتقيها، ولا الأحداث التى ستتم حتى تستعد لها، ولكنك لا تملك إلا اللحظة التى تعيشها.

والزمن حجاب من أحجبة الغيب، خلقه الله سبحانه وتعالى ليحجب عنا الغيب، كما أن المكان حجاب أيضاً من أحجبة الغيب، وهناك حجاب الزمن الماضى يحجب ما حدث عنك، حقيقة تستطيع أن تقرأ عنه فى الكتب، وأن تسمع عنه من الرواة، ولكن

كتب التاريخ مليئة بالمتناقضات، كل يحاول أن يروى من وجهة نظره وعلى هواه، ورواة التاريخ مختلفون؛ فإذا اختلفت الروايات فهل تستطيع أن ترى رؤية العين ما حدث فى الماضى حتى تصل إلى اليقين؟ إنك تستطيع أن تعرف ماذا يحدث غداً ولا تستطيع أن تعلم ماذا يحدث فى العام القادم. والمكان أيضاً من حجب الغيب، فأنت لا تستطيع أن تعرف وأنت فى مكان محدد ماذا يحدث فى الأماكن الأخرى من الدنيا، وهكذا كان الزمن من حجب الغيب.

وأنت لا تستطيع أن توقف الزمن لأنه - كما قلت - هو الذى يملكك وأنت لا تملكه. وأنت لا تستطيع أن تبقى طفلاً، ولا أن تبقى شابًا لا يؤثر فيك الزمن، ولكنك تنطلق من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة رغماً عنك.

وهكذا لا يملك الإنسان إلا اللحظة التى يعيش فيها، واللحظة التى مضت هى ماض لا يملكه إلا الله، واللحظة القادمة هى مستقبل لا يملكه إلا الله، وإرادتك لا تستطيع أن تجعلك طفلاً لا ينمو، أو شابًا لا يصيبه الهرم أو إنسانا لا يدركه الموت، فالزمن يمضى، وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة وترحل، وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصححه.

ولذلك إذا قلنا يوماً فهذا قانون دنيوى لا تسيطر عليه أنت، فترة من الوقت لا تستطيع أن تعيدها وإذا نحن استطعنا أن نعرف الزمن بالقوانين البشرية، فإن الزمن بمعناه المطلق غير موجود، أى إنه نسبى مرتبط بالأحداث، فهو فترة قياس أحداث معينة تقع، وبدون هذه الأحداث لا يصبح للزمن معنى ولا وجود، فمعنى زمن طويل أن الحركة التى حدثت فيه ضيقة وسريعة؛ فإذا استعرضت عمرك مثلاً وقلت إن فترته ستون سنة أو سبعون سنة، فأنت فى الحقيقة لا تستعرض إلا أحداثاً كثيرة وحركة حياة واسعة حدثت، وإذا قلت: إن هذا الشىء لم يستغرق إلا ثوانى معدودة، فأنت تستعرض حركة ضيقة وسريعة، وبدون الحركة لا يكون هناك معنى للزمن، ولكن ذلك الذى يغفل عن الزمن بنوم أو بموت لا يشعر بالزمن وليس الزمن موجوداً فى حياته، فنادراً عندما ينام الإنسان أن يستيقظ وحده بدون أن يلجأ إلى ظواهر الزمن كالساعة أو الليل والنهار أو أن يحدد عدد الساعات حين يستيقظ إلا إذا نظر فى الساعة، ولا يستطيع فاقد الوعى لفترة من الزمن أن يحدد الفترة التى قضاها فاقداً للوعى، وكذلك لا يستطيع الإنسان عندما يموت أن يحدد مدة الزمن التى قضاها فى البرزخ، ولذلك نجد القرآن الكريم يلفتنا إلى ذلك فى يوم البعث فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن

﴿لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝﴾ [طه].

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا فى القرآن الكريم أن حياتنا فى البرزخ لا تخضع للزمن، ذلك أننا حين البعث يوم القيامة يسألنا الله سبحانه وتعالى عن المدة التى قضيناها فى البرزخ فيقول بعضنا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، ويقول: المجرمون وهم لا يستطيعون تحديد الزمن فبعضهم يقول: إنها عشرة أيام وبعضهم يقول: إنها يوم، وبعضهم يقول: إنها ساعة، ولو كان هناك زمن فى حياة البرزخ لعرف الذين عاشوا فيه كم قضوا، ولكن عدم علمهم وتخبطهم يبين أن من يموت لا يستطيع أن يحدد الزمن الذى يقضيه فى حياة البرزخ لأن الزمن لا يقاس إلا بالأحداث.

على أن هناك سورة أخرى أعطاها الله لنا فى القرآن الكريم هى سورة أهل الكهف الذين لبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢].

ويقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

فى هذه الآيات يريد الله سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى قوله الكريم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

أى إن الإيقاظ هنا كان إيقاظ بعث كما سيحدث يوم القيامة، وكان الهدف منه أن يلفتنا الله إلى أننا لن نعلم كم من الزمن قد مر علينا قبل أن نبعث، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾.

أى: إن البعث تم حتى يعرفوا أن تأثير الزمن يمكن أن يوقفه الله؛ ولذلك حين تساءلوا وسأل بعضهم البعض، لم يكن عندهم ما يحدد لهم الزمن الذى قضوه خلال فترة النوم، فحددوه على أساس العادة، فالإنسان عادة لا ينام إلا جزءا من اليوم، أو على أقصى تقدير يوماً بأكمله إذا كان فى غاية الإرهاق، والدليل على أن قولهم صادق بالنسبة لهم، أنهم لم يروا تأثير الزمن على أجسادهم، ولا على وجوههم؛ بل بعثوا على الهيئة نفسها التى ناموا عليها.

لو أن بعضهم مثلاً نام وشعره أسود واستيقظ وقد شاب شعره؛ لساعده ذلك على أن يقيس الحدث على مدة نومه، أو لو أن أحدهم نام وهو شاب ثم استيقظ ليجد نفسه كهلاً، فى هذه الحالة كان من الممكن أن يقيس مدة النوم على مدة الحدث، حينئذ تكون هناك أحداث قد حدثت وهى انتقال من الشباب إلى الشيخوخة، والحدث هو قياس

الزمن؛ فكانوا حينئذ ولو بالتقريب يستطيعون أن يحددوا مدة نومهم، ولكن ما داموا قد استيقظوا على الهيئة نفسها التى ناموا عليها إذن . ففى هذه الحالة يقيسون الحدث بالزمن. كيف حددوا الحدث؟ إنهم استخدموا عادة النوم عند الإنسان، ومدة النوم أقلها بعض اليوم وأكثرها يوم كامل، لأنهم ليس عندهم مقياس للزمن فلا يوجد مقياس للزمن يعيش به الإنسان ما دام غائباً عن الأحداث.

إذا انتقلنا إلى قصة أخرى أنبأنا القرآن عنها فى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فى هذه الآية يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته فى الكون، وأن الكون الذى يعمل بالأسباب التى خلقها الله - فيه طلاقة القدرة التى هى فوق الأسباب فلا يمكن أن تكون الأسباب - وهى من خلق الله قيداً على الخالق سبحانه وتعالى، مر هذا الرجل على قرية خربت بعذاب من الله، أو بذنوب أصحابها وفسادهم فتعجب ! كيف والأرض قد ماتت وذهبت منها كل آثار الحياة من إنسان وحيوان ونبات؛ كيف سيحيى الله هذه الأرض التى ليس فيها أى مقومات للحياة؟ حينئذٍ أرادت مشيئة الله أن تُريه هذا بالتجربة، وأن يلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ولما استيقظ وعادت الحياة إليه لم يكن فيه شىء قد تغير، بل استيقظ على الهيئة التى مات عليها نفسها، استيقظ شابًا قويًا لا شىء حوله يستطيع أن يقيس عليه الزمن، وحينئذٍ سأله الله: كم لبثت؟ فقال قياساً على عادة النوم عند الإنسان وربما أكون قد نمت يوماً، وربما نمت بعض اليوم؛ ولذلك كان صادقاً مع نفسه حين قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، حينئذ أنبأه الله سبحانه وتعالى أنه قد لبث مائة عام ولكى يعطيه الدليل المادى على ذلك قال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾.

فوجد الطعام لم يتغير، ثم طلب الله منه أن ينظر إلى حماره؛ فوجد أن الحمار قد مات ولم يبق منه إلا عظام نخرة، أى إنه مات ثم تعفن ثم تحلل حتى أصبح عظاما نخرة، فقال: إن ذلك لا يمكن أن يحدث فى يوم واحد؛ بل لابد له من فترة طويلة، فلما تبين له ذلك أعطاه الله آية بأن جعله يشهد عودة العظام النخرة وعودة الحياة إلى حماره فقال الرجل: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولقد كان مرور الزمن على الحمار، وتوقف الزمن عن الطعام.. آية بأن الله سبحانه وتعالى يستطيع بطلاقة قدرته أن يجعل الزمن يمضى أو يقف.

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن مقياس الزمن هو الأحداث التى تقع فيه، وأن الإنسان إذا كان فاقد الوعى أو فى حياة البرزخ لا يستطيع أن يحدد الزمن، وهنا يقف الزمن أى لا يكون هناك زمن.

إذن.. فالزمن شىء نسبى فى الحياة، وهو كما لا نحس به عندما ننام، ولا نستطيع أن نحدده؛ كذلك فى حياتنا فى البرزخ لا نستطيع أن نحدد الزمن لأنه لا زمن فى هذه الحياة.

معجزة القرآن.. وزمن يوم البعث

ننتقل بعد ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى أطلق على البعث ووصفه بأنه يوم فقال الله سبحانه وتعالى: يوم القيامة. ويوم الدين، وكلمة يوم يمكن أن تؤخذ بأنها موعد؛ غير أن بعض الناس يتساءلون: كيف يمكن أن يكون يوم وهو ليس له زمان محدد.

إن هذا الإطلاق له أكثر من معنى، فيمكن أن نقول إن هذا تنبيه بأن الحساب سيمضى بلا توقف، بمعنى أنه لن يتوقف الحساب ليستريح الناس ويناموا، ثم يستأنف فى اليوم التالى كما يحدث فى عالمنا البشرى، ويقرب الله إلى أذهاننا فيطلق اسم يوم على أساس أن العمل يستمر طوال النهار، ثم يتوقف ليلاً.

ولكن الذى يجب أن نفهمه أن كلمة يوم عند الله لا يحدها زمان، أو لا يحدها وقت، الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

وأمام هاتين الآيتين لابد أن نتوقف قليلاً، كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مدته مرة ألف سنة؟ ومرة خمسون ألف سنة؟ وأى مقياس لليوم عند الله هل يوم القيامة يساوى يوماً من أيام الدنيا، أو يساوى ألف سنة، أو يساوى خمسين ألف سنة. إن ذلك يلفتنا إلى حقيقة هامة تفهمنا معنى اليوم فى استخدامه مع يوم القيامة، إذا أردنا أن نعرف المعنى المطلق للزمن فإنه كما قلنا لا يوجد معنى مطلق، ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الزمن، ولذلك فإنه يستطيع أن يخلق يوماً مقداره ساعة، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة، ويوماً مقداره ألف سنة، ويوما مقداره خمسون ألف سنة، ويوماً مقداره مليون سنة، فذلك خاضع لمشيئة الله.

ويوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى بأحداثه كلها، بجنته وناره، وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه، وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون ويخرج من علمه إلى علم مخلوقاته، سواء كانوا الملائكة أو البشر أو الجان؛ يقول الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم: ﴿ كُن ﴾، فيخرج من علمه إلى علم خلقه، أو يخرج من علم الله الأزلى إلى علم غير الله المحدود، والله سبحانه وتعالى لا يحده يوم ولا زمان ولا مكان، ولكنه إذا قال هذا يوم الدين كان ذلك يوم الدين، فإذا أراده الله أن يحدث فى هذه الدقيقة

حدث فى هذه الدقيقة، وإن أراده أن يحدث بعد ألف عام يحدث بعد ألف عام، وإن أراد أن يظهره بعد مليون سنة حدث بعد مليون سنة، فيوم الدين موجود فى علم الله بكل مواصفاته من زمان ومكان وطريقة بعث وحشر، وطريقة حساب وجنة ونار، كل هذا فى علم الله، والله وحده هو خالق هذا اليوم وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده.

نحن إذا قلنا «يوم» بمنطق البشر فهذا قانون دنيوى يحكمنا ولا نحكمه، يسيطر علينا ولا نسيطر عليه، حقبة من الزمن تمر سواء أردنا أم لم نرد، بأحداثها ووقائعها وكل ما يتم فيها، هذا هو المنطق البشرى، ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذه القوانين كلها إنه هو خالقها يأمرها فتطيع.

إذن.. فيوم الدين يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى يضعها هو بزمن يخلقه فى موعده، والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا باختلاف المقاييس فى الآخرة عن مقاييس الدنيا، فكما أننا قد بينا أن القوانين تختلف بين النائم والمستيقظ، والموجودة فى حياة الدنيا، والموجودة فى حياة البرزخ، فإن القوانين أيضاً تختلف يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى ألا نأخذ شيئاً فى يوم القيامة بمقاييس الدنيا، فنحن سنرى ما كان محجوباً عنا، وسنشهد ما لم نشهده فى حياتنا الدنيوية، وستكون هناك أحداث تقع لم نكن نتخيل أنها موجودة.

ولذلك إذا أراد الله أن يخلق يوماً كيوم القيامة مقداره ألف عام لاستطاع، ولو أراد أن يفرق بين هذا اليوم وغيره بأن يجعله مليون سنة فإن ذلك يحدث، إذن.. فلا نأخذ نحن ولا نحاول أن نحدد مقاييس يوم القيامة بمقاييسنا الأرضية، بل علينا أن نبتعد عن ذلك تماماً ولنأخذ تحديد الله لليوم بأنه الفترة التى يقتضيها حساب الناس جميعاً، أى إنها فترة أحداثها تبدأ بالبعث، وتنتهى بانتهاء محاسبة الخلق. وبقدر ما شاء الله لهذه الأحداث أن تمتد، فذلك هو يوم القيامة الذى يحدده بداية ونهاية هو البعث من القبور ونهاية الحساب. هل يتم فى ساعة أو فى مليون سنة لا أحد يستطيع أن يحدد، لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى هى التى تحدد ذلك اليوم.

وكما أننا قد عرفنا أننا نغيب عن الزمن، بحيث يُبعث الذين ماتوا منذ بداية عمر حياة الإنسان، فلا يعرفون كم قضوا فى البرزخ، ويقولون: إنه يوم أو بعض يوم، مع أنه قد يمتد بحسابنا البشرى إلى مئات الألوف من السنين، وربما ملايين السنين، فكذلك يوم القيامة لا تحده المقاييس التى نعيش بها ولا قدرات الدنيا.

بعض العلماء يقول: إن الناس فى الآخرة سيتعرضون لأهوال، ويرون أشياء لم يكونوا يرونها كالملائكة والشياطين، بل إن الناس سيرون من كان قبلهم فى الدنيا ومن أتى إليها بعدهم، وهؤلاء وهؤلاء لم يكونوا قد رأوهم من قبل؛ نقول: إننا لا نريد أن نتجاوز؛ لأن يوم القيامة ينتهى فيه إلف الحياة الدنيا، أى ما ألفناه فى الدنيا، كالليل

والنهار، والبحار والجبال، والنجوم والشمس والقمر، كل هذا سيختفي وسينتهي، ونحن سنخرج من هذه الأرض ثم بعد ذلك نحشر في أرض الميعاد، ولكن ما قضينا معه عمرنا كل هذا سينتهي تماماً، وذلك إذا تنبهنا لعلامات القيامة في قول الله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾ [الانفطار].

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾ [التكوير].

إذن.. فكل الحياة التي ألفناها من شمس وبحار وجبال ونجوم ستختفي وتنتهي تماماً، وكل المقاييس الدنيوية ستزول، ولا يمكن لنا أن نستخدم مقياساً دنيويا مما ألفناه في مقاييس الآخرة.

نكون هنا قد وصلنا إلى توضيح معنى اليوم، وقد شاءت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يعطينا في القرآن الكريم المعاني التي تقرب إلى أذهاننا ما هو غيب عنا، وذلك رحمة بعقولنا وحتى لا تتيه وتضيع.

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه مالك يوم الدين، ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده، ليس هناك دخل لأي فرد آخر فيه، أنا أملك عباءتي، وأملك متاعي، وأملك منزلي، وأنا المتصرف في هذا كله وحدي، والذي أحكم فيه جميعه. فمالك يوم الدين معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب، أي إن كل شيء سيأتي من الله مباشرة، بدون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهريا، ففي الدنيا يعطي الله الملك ظاهراً لبعض الناس، ويولي بعض الناس ظاهراً أمر بعض؛ ولكن في يوم القيامة ليس هناك ظاهر، فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول الله في وصف يوم الدين: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

وكأن الله خلق الأسباب في الدنيا لتمضي بها الحياة، ولكن في الآخرة لا توجد أسباب، والأمر مباشر من الله.

والملك في ظاهر الدنيا يهبه الله لمن يشاء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولعل كلمة «تنزع» التي استخدمها الله سبحانه وتعالى تلفتنا إلى أن أحداً في الدنيا لا يرحب ولا يريد أن يترك الملك؛ ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعاً، أي: رغماً عنه ورغماً عن إرادته، والله هو الذي ينزع الملك ممن يشاء.

ولعل بعض الناس يتساءل: هل الملك في الدنيا والآخرة ليس لله؟ نقول الأمر في كل وقت لله، ولكن الله قد استخلف بعض خلقه، أو مكنهم من ملك في الأرض، فجعل

لهم ملكاً ظاهريا، ومعنى ذلك أنه مُلك ظاهر للناس فقط على أنه للبشر، ولكنه فى حقيقته ليس نابعاً من ذات من يملك، ولكنه نابع من أمر الله، ولو أنه كان نابعاً من ذاتية من يملك وقدراته لبقى له، ولم ينتزع منه، ولكن انتزاع الملك ممن يملك دليل على أنه لا يملكه بذاته وقدراته، ولكنه مستخلف فيه بأمر الله، ولهذا حكمة فالملك الظاهر يمتحن فيه العباد، يمتحن فيه من يملك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحاسبه يوم القيامة على كيف تصرف فى ملكه وأداره، وهل طبق فى ذلك منهج الله؟ أم انطلق يفسد فى الأرض، ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ وهل استكانوا للظلم؟ وهل استحبوا المعصية؟ أم أنهم وقفوا مع الحق وضد الظلم؟ وهو لا يمتحن هؤلاء؛ لأنه لا يعلم المصلح منهم والمفسد، ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيداً على نفسه حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول: يا رب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت الطريق السوى ولطبقت منهجك، ولكن حتى لا يجادل إنسان ويكون كل شخص شهيداً على نفسه يوم القيامة، خلق الله الأسباب فى الدنيا، وخلق الملك الظاهرى.

بعض الناس يتساءل عما إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء، فهل هو محتاج؛ لأن يمتحنا فى الدنيا؟ و الجواب طبعاً لا . . ولكننا إذا أردنا أن نضرب مثلاً يقرب ذلك إلى الأذهان - ولله المثل الأعلى - نقول إن الجامعات فى كل أنحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها، فهل أساتذة الجامعة يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون أن يحصلوا منه على العلم؟ طبعاً لا . ولكن ذلك يحدث حتى إذا رسب الطالب فى الامتحان وجاء يجادل واجهوه بإجاباته فيسكت، ولو أنه لم يعقد مثل هذا الامتحان لادعى كل طالب أنه يستحق مرتبة الشرف، ولو لم يجعل الله الملك ظاهراً فى الأرض، ويجعل فى ظاهر الأشياء أن هذا يعطى وهذا يمنع، وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير، وهذا يستطيع أن يأخذه منك، لما اندفع ضعاف النفوس من الناس لإرضاء البشر على حساب الله، ولما وجد الإغراء بالمعصية واستحق الناس الذين يلتزمون منهج الله دخول الجنة.

إذن . . فظاهر الأشياء فى الدنيا تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا مع أنها امتحان يمر به الإنسان ليوصله إلى الجنة أو إلى النار، أما فى الآخرة فظاهر الملك يختفى، والأسباب تختفى، ولا يملك إنسان لإنسان أمراً ولو كان ذلك ظاهراً.

إلى هنا نكون قد تحدثنا عن معنى الزمن، ومعنى يوم الدين والاختلاف بين قوانين الدنيا وقوانين البرزخ وقوانين الآخرة، ونبدأ فى الحديث عن علامات الآخرة أو علامات الساعة التى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتى تحققت.

معجزة القرآن.. وعلامات يوم القيامة

رسول الله صلى الله عليه وسلم له نبوءات كثيرة عن اقتراب الآخرة، وهذه النبوءات تحقق معظمها وأصبح واقعا نعيش فيه بعد أن كان غيباً عمن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاشوا معه، ونحن نصدق هذه النبوءات جميعاً، ما تحقق منها وما لم يتحقق لأنه ما دام رسول الله قد قال وهو الصادق الأمين، فلابد أنها هي الحق.

ولقد كشف الله من غيبه لرسوله الكثير، وأطلعه على ما هو قادم، ولكن ليس معنى هذا أن يدعي أحد أنه يعرف الغيب، ذلك أن تلك خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فهو موحى إليه من السماء، وقد أسرى به إلى سدرة المنتهى، واطلع ورأى وعرف أشياء لم يطلع عليها غيره.

وإذا كنا نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه رسول آخر الزمان، ومعنى ذلك أنه الرسول الخاتم الذي لن يأتي رسول بعده حتى يوم القيامة، ومعنى ذلك أيضاً أن رسالته تستمر في الأرض إلى آخر يوم من أيام الزمن، والزمن - كما قلنا - مقياس أرضي ينتهي بانتهاء الدنيا.

وهناك نبوءات لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحداث قريبة وقعت بعد وفاته، فقد تنبأ بانتشار الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً وقامت الدولة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ولم تمتد شمالاً إلى أوربا ولا جنوباً، وتنبأ بواقعة الجمل، كما تنبأ بمقتل الحسين وغير ذلك، ولكننا لن نتعرض للنبوءات القريبة التي تحققت وإنما سنتعرض للنبوءات التي تحققت في هذا الزمان، أو على وجه الدقة لبعض هذه النبوءات لأن المجال لا يتسع لها كلها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيت هوى متبعاً وشحاً مطاعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فانتظر الساعة»[1].

---

(١) روى أبو داود [٤٣٤١]، والترمذي [٣٠٥٨]، وابن ماجه [٤٠١٤] عن أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك - يعني بنفسك - ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه قبض على الجمر للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله، وزادني غيره قال: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منهم. وضعفه الألباني.

وهنا فى الحديث ثلاثة أشياء:

أولها: الهوى المتبع، ما معنى الهوى المتبع؟ لقد أنزل الله سبحانه وتعالى للناس منهجاً يحكم حياتهم، ومنهج الله هو الذى ينبغى أن يسود إذا أرادت البشرية أن تحصل على الحياة الآمنة المنسجمة فى الأرض، ولقد طبق المسلمون الأوائل منهج الله فسادت الحضارة الإسلامية العالم أكثر من ألف سنة، وقادت الحضارة والعلم وكان الرقى والتقدم والازدهار للمسلمين وحدهم المتبعين لمنهج الله.

ثم بدأ المسلمون يبتعدون عن المنهج وعن تطبيقه، لأن الدنيا اجتذبتهم وأصبح لكل واحد منهم هوى فى الدنيا، رغبة تناقض منهج الله وتنقضه، ولكنه يفعلها ليرضى أهواء نفسه، ويحقق منافع ذاتية لذاته، فكل واحد فى الدنيا يريد المال، والله سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً للمال بأن ما يأتى منه عن طريق حركة الحياة يكون هو الحلال، أى ما يأتى منه بالعمل سواء أكان عملاً مباشراً أم عن طريق المشاركة، ولكن الناس تريد المال بلا عمل، وهذا مناقض لمنهج الله، ولكى يحقق الناس هذا النفع الذاتى نقضوا منهج الله، وأصبح الواحد منهم يتفنن فى الحصول على المال الحرام، إما بالسرقة أو بالنصب أو بالتحايل أو بفعل ما يغضب الله، هذا نوع من الهوى المتبع.

نوع آخر: الإنسان يريد أن يعتدى على حرمات غيره ليحقق لذاته متعة وقتية، والله يحرم ذلك، ومنهج الله لا يقره، وهنا يدخل الهوى المتبع، فبدلاً من أن يطبق الناس منهج الله ويغضوا أبصارهم، انطلقوا وراء شهواتهم ونقضوا منهج الله لحركة الحياة.

إذن.. لم يصبح منهج الله هو الذى يحكم، ويرجع الناس إليه فى أفعل ولا تفعل، بل أصبح ما يريد أن يحققه كل إنسان لذاته هو الذى يحكم، وفى هذه الحالة ينسى الناس التكليف ويبتعدون عنه ويجعلونه وراء ظهورهم، ولم يعد يسيطر على حركة الحياة فى الدنيا إلا هوى النفس، وأصبح أى إنسان يستبيح أى شىء وأى عمل فى حركة الحياة ليحقق لنفسه مالاً أو نفعاً، وما دام هوى النفس هو الذى يحكم الحياة وليس منهج الله، تصبح حركة الحياة متعاندة وصراع الحياة مريراً؛ هذا يريد وهذا يريد، ولا تتفق النفوس أبداً، ويشقى الإنسان فى الأرض لأن حركة الحياة لا تستقيم إلا إذا كان هناك أمر تصونه ويصونك، ونجتمع عليه جميعاً.

إذن.. يكون الخلاف هو السائد ونكون قد نقضنا منهج الإيمان؛ لأنه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[1]، فإن أخضعنا أهواءنا لمنهج واحد تكون حركة الحياة قد استقرت، وإذا اصطدمت أهواء الناس فى الحياة تفسد الحياة الدنيا، لأننا فى هذه الحالة نُخضع الحق للهوى، أى يكون

(١) ذكره البخارى فى قرة العينين [٤٥].

الحق فى يدنا لعبة نشكلها كما نشاء، بحيث تحقق لنا ما نريد وينطبق علينا قول الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

لماذا؟ لأن هوى كل واحد منا مخالف لهوى الآخر، ولكن الحق لا يتغير. ومن هنا فهذا يريد وهذا يتغير وما جاء الدين إلا لعصمة حركة الحياة من أهواء الناس، حتى يتعاضد؛ أى يكمل بعضه بعضا، ويتساند؛ أى يقف بعضه مع بعض حتى تستقيم الدنيا.

فإذا رأيت هوى متبعاً فاعلم أن منهج الله لا يحكم حياة الإنسان فى الكون وعندئذ انتظر الساعة.

الأمر الثانى: حين ترى شحًا مطاعاً، والشح هو البخل، ومعنى ذلك بخل النفس عن أن تعطى، وفى هذه الحالة تحدث النفس صاحبها أنه لو أنفق لذهب ماله، وإغواء الشيطان فى هذه الحالة يكون هو الغالب و الحاكم على سلوك الإنسان، مصداقا لقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يبخل الناس بمالهم فلا ينفقونه فى سبيل الله ولا يعطونه للفقير والمحتاج، ولا ينفقونه فيما ينفع الناس، وحينئذ يختل المقياس الاقتصادى ويصبح هناك غنى فاحش وفقر مدقع.

ولا بد أن ننتبه إلى أن شح الحياة ليس معناه الشح المالى فقط، ولكن معناه العام شح أو بخل كل ذى قدرة بقدرته وجهده، فتجد العامل يستطيع أن يعمل ولكنه لا يعمل، والموظف يستطيع أن ينتج ولكنه لا ينتج، وكل عمل فيه جهد يبخل العاملون فيه بجهدهم فهناك بخل من ذى القدرة بجهده، وبخل من ذى العلم بعلمه، أى إن العالم أو المعلم أو الأستاذ قد يملك العلم الكثير والغزير، ولكنه يبخل أن ينقل هذا العلم إلى طلبته أو إلى من يدرسون العلم على يديه، بل لا يعطيهم من علمه إلا قدراً بسيطا جدا، وشح ذى الجاه بجاهه، أى إن الإنسان يكون فى مجتمعه مسموع الكلمة مطاع الأمر، ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله له من هذا الجاه فى مساعدة المحتاجين، أو فى إنصاف المظلومين، أو فى تمكين الضعفاء من حقوقهم، فيأتى إليه المحتاج وهو يستطيع أن يقضى له حاجته بكلمة واحدة، ولكنه لا يفعل بل يتركه بدون أن يقضى له حاجته، ويأتى إليه المظلوم ويعرف ذو الجاه أن هذا المظلوم قد وقع عليه الظلم وهو يستطيع بكلمة واحدة أن يزيل هذا الظلم، ولكنه لا يفعل ويظل المظلوم يرجو وذو الجاه أو السلطان لا يفعل شيئاً، ويأتى الضعيف إلى صاحب الجاه يطلب منه أن يمكنه من حقه ويستطيع صاحب الجاه أن يفعل وربما بتوقيع صغير منه يستطيع أن يعيد لهذا الضعيف حقه، ولكنه لا يفعل.

وهكذا فى كل أوجه الحياة تجد شحا مطاعاً، فكل إنسان يبخل بجهده على غيره حتى ولو كان هذا الجهد لا يكلفه شيئاً، وأقل الشح هو شح المال، وأكثر الشح ضررا هو شح النفس، فى أن كل إنسان لا يعطى للمجتمع الذى يعيش فيه ما عنده.

وبذلك يتدهور المجتمع، وتزداد مشاكل الناس تعقيداً، ولا توجد لها الحلول، فما دام الشح المطاع هو الذى يحكم، فالمجتمع كله ينحدر بسرعة إلى هاوية عميقة حتى لو وجدت أقلية تعطى ما عندها من مال وعلم وجاه إلى آخره، فإن الأكثرية التى لا تعطى تفسد جهود الأقلية التى تعطى وتجعلها جهوداً غير مؤثرة.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا فى القرآن الكريم مسألة الشح فى ثلاث آيات فى قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وهكذا نرى فى الآيات الثلاث أن الشح لا ينطبق على المال فقط، ولكنه ينطبق على كل نشاطات الحياة، ففى الآية الأولى ينطبق على المعاملة مع الزوجة وعلاقة الزوج بها، والله سبحانه وتعالى يطالبنا فى علاقاتنا بالسماح وليس بالتشدد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى»[1].

والآية الثانية فى سورة الحشر يبين الله سبحانه وتعالى فيها السماحة التى لابد أن تقوم فى المجتمع الإسلامى، تلك السماحة التى تقيم المجتمع على أساس المحبة، وقد نزلت هذه الآية فى الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وتركوا أزواجهم وأولادهم وكل ما يملكون فى مكة، انظر إلى السماحة فى هذا الظرف غير العادى أو هذا الظرف القهرى، مجموعة تملك كل شىء، ومجموعة ليس لديها شىء، حتى الزوجات أو النساء والرجل قد يفرط فى كل شىء، وقد يعطى من كل شىء، من ماله وعلمه وجهده، ولكن لو وصلت المسألة إلى الزوجة أو الزوجات فإنها فى هذه الحالة تكون شديدة جدا على النفس، ولكن الأنصار كان الواحد منهم يأتى بأحد المهاجرين ويقول له: هذا ما لى فخذ نصفه، وهذه دارى نقتسمها معاً، وهؤلاء زوجاتى انظر إليهن أحبهن إلى نفسك أطلقها وتتزوجها.

وهكذا وصل العطاء فى هذا الظرف غير العادى إلى حدود غير عادية، ولكن ذلك

---

(١) روى البخارى [٢٠٧٦] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»، وابن ماجه [٢٢٠٣] بلفظ: «عبدا» بدلا من: «رجلا»، وابن حبان [٤٩٠٣].

تم حتى لا يكون المجتمع الإسلامى بادئاً بمجتمع فيه فقر مدقع وغنى فاحش، وفيه رجال متزوجون ورجال بلا زوجات، فقد تشيع الفاحشة وقد يقوم هذا المجتمع على الحقد؟ لأن من لا يملك سيحقد على من يملك.

والآية الثالثة فى الإيمان والتقوى، وذلك حتى يعطى الإنسان الطاقة التى يستطيعها للإيمان والعبادة، ولا يكون شحيحاً فى صلاته يقول: سأصلى الفرض وحده ولن أصلى السنه، أو شحيحاً فى زكاته وصدقته، فيقول: وهو يملك الكثير لن أخرج من زكاة المال إلا ما هو مفروض بدون أن أزيد عليه قرشاً واحداً، وكذلك فى كل متطلبات الإيمان من الله سبحانه وتعالى، يعد الله بالأجر العظيم من يزيدون فيها ولا يبخلون، بشرط أن تكون الزيادة من جنس ما فرض من العبادة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ أن الله سيسأل الناس يوم القيامة عما فعلوه بالمال الذى وهبهم إياه، وبالعلم الذى أعطاه لهم، وبالجاه والسلطان الذى جعلهم مستخلفين فيه، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن تزلّ قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن عمله فيم عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»[1].

على أننا لابد أن نتساءل: لماذا يكون الشح المطاع نقضاً لمنهج الله فى الأرض؟ لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل للبشرية حضارة وتقدماً، وهذه الحضارة والتقدم لا يتمان إلا إذا أعطى كل جيل كل ما عنده للجيل الذى بعده، وحينئذ يبدأ الجيل الجديد من النقطة التى انتهى إليها الجيل الذى قبله، ثم يضيف إليه، وعدم عطاء أى جيل كل تقدم فى الحياة للجيل الذى بعده، سيوقف الحضارة والعلم، ويؤثر على تقدم البشرية كلها، والله وضع منهجاً يحقق تقدم الإنسان فى الحياة ورقيها، وشح النفس يمنع تطبيق هذا المنهج وينقضه.

والأمر الثالث: إعجاب كل ذى رأى برأيه، ما هو الرأى؟ الرأى هو الذى يمثل هوى النفس الداخلى، أى ما تخفيه فى نفسك من أهواء وأطماع ولا تعلنه للناس، ولكنك تعمل على تحقيقه بآراء تبديها تحاول أن تضع فى ظاهرها المصلحة العامة، بينما هى فى الحقيقة محاولة لتحقيق ما تخفيه من أغراض حينئذ تختلف الآراء فى الشىء الواحد، فيصبح لهذا رأى ولهذا رأى، وكل الآراء التى تسمعها هى آراء بعيدة عن الحق والحقيقة، وكل إنسان متمسك برأيه يحاول أن يدافع عنه دفاعاً مستميتاً، وفى هذه الحالة عندما تختلف الآراء لا تعرف أين الحق.

---

(١) روى الترمذى [٢٤١٧] عن أبى برزة الأسلمى بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»، وصححه الألبانى، والدارمى [٥٣٩] عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه.

ولا يلتفت كل هؤلاء الذين يُدلون بآرائهم إلى رأى المشرع، ولا رأى منهج الله، بل يصبح كل تشريع يطبق على أساس المطامع التى يخفيها كل إنسان فى صدره، والتشريع الواحد يطبق مئات التطبيقات المتعارضة المتناقضة، وكل من يطبق متمسك برأيه معتز به.

حينئذ تتعاند حركة الحياة وتصطدم، ويصبح الناس فى فوضى لا يعرفون ماذا يفعلون، الشىء محدد ولكن الأغراض التى يخفيها الناس فى صدورهم ويحاولون تحقيقها عن طريقه متناقضة ومتباعدة، بحيث تجعل حركة الحياة نفسها لا تستقيم ولا تعتدل.

وإذا نظرنا إلى ما يحدث الآن نجد أننا فى بعض الأحيان نرى أناسا يعرفون أن الرأى الذى يقال هو الحق، ومع ذلك فإنهم من إعجابهم برأيهم ينقضون هذا الحق برأى الباطل، ومع أنهم يعرفون أن هذا الرأى الذى يقولونه باطل إلا أنهم يتمسكون به ويدافعون عنه زهوا وإعجاباً بأن الرأى الذى سيؤخذ به هو رأيهم هم، مهما يكن مخالفاً للحقيقة ومتصادماً مع الحق.

بل إنهم يفاخرون بعد أن تنتهى الجلسة وتنفض، بأنهم قد استطاعوا أن يفرضوا رأيهم الباطل على غيرهم، ويقولون زهواً: لقد أخذ الجميع برأينا، وقد يقضى موظف كبير برأى ما فإذا جاء من هو أقل منه فى المنصب وأبدى رأياً مخالفاً يتفق مع الحق، فإن هذا الموظف الكبير يرفض الرجوع عن رأيه مع أنه باطل ويصر عليه وعلى تنفيذه.

وهكذا يضيع الحق فى الدنيا بين إعجاب كل ذى رأى برأيه، ويصبح ما يُتخذ من قرارات أو قوانين لا يمثل الحق، ولكنه متخذ من آراء تتمسك بالباطل وتعتز بالإثم، فلا يحكم الحق الدنيا، والله سبحانه وتعالى يريد أن يكون الحق هو الحكم.

❁ ❁ ❁

ومن علامات الساعة.. أن تلد الأَمَةُ ربتها

ومن علامات الساعة التى أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها هى: «أن تلد الأمة ربتها» ولقد فسر هذا الحديث تفسيرات كثيرة، فقالوا: إن معناه أن يتعلم أولاد الفقراء ويصبحوا من ذوى المناصب الهامة، فتتنكر الابنة لأمها، وتجد أنه من العار أن تعترف إنها ابنة هذه الأم فتجعلها خادمة عندها، وقيل أن المقصود به إن الابنة إذا تزوجت رجلاً غنيا أصبحت أمها خادمة عندها.

ولكننى أعتقد أن هناك تفسيراً آخر لهذا الحديث، فمعنى أن تلد الأمة ربتها هى أن تصبح الابنة هى الآمرة الحاكمة فى البيت، تفرض رأيها على أمها وأبيها، ولا يجرؤان إلا أن يطيعاها، والمفروض أن الابنة بالذات أن تكون طيعة لوالديها، وأن تفعل ما يأمرانها به، ولكن الأمر ينقلب فبدلاً من أن تكون الأم هى سيدة البيت، ورأيها هو الذى ينفذ ويطاع، تصبح الابنة هى سيدة البيت وأمرها هو النافذ، والأم والأب عاجزان عن أن يفعلا شيئاً.

بل إن الأمر قد يصل إلى نوع التحدى، تفرض فيه الابنة إرادتها حتى فيما يغضب الله، وتتحدى بذلك أمها وأباها، ونحن نرى أن هذا قد أصبح سمة من سمات الحياة الآن، فالابنة هى ربّة الأم والأم لا تملك إلا أن تطيع ولو مكرهة، وهذا فى رأيى معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من علامات الساعة «أن تلد الأمة ربتها»[1]، أى: إن الابنة لها ولاية والأم من رعيتها.

ومن علامات الساعة كما أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتطاول الحفاة

---

(١) روى البخارى [٤٧٧٧] واللفظ له، ومسلم [٩/ ٥] حدثنا إسحاق عن جرير عن أبى حيان عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر. قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ... وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، ثم انصرف الرجل فقال: ردوا على فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا، فقال: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم.

العراة فى البنيان، أى إنه يأتى زمن يكون المال فى يد بعض الناس الذين تراهم فتعتقد أن أحدهم فقير لا يملك شيئاً من صورته وهندامه، ولكنك تفاجأ بأنه يملك المال الكثير، وعادة مثل هؤلاء الناس عندما يأتيهم المال من كل مكان فإن عقلهم لا ينصرف إلا لبناء العمارات وتملكها، هم يقومون أنفسهم بما يملكون من عقارات؛ لأنهم عادة لا تكون لهم ثقافة ولا علم يصنع لهم مكانة فى المجتمع، فلا يستطيعون بعلمهم أوثقافتهم أن يحصلوا على احترام الناس، ولا بنسبهم وعائلاتهم، ولا يكون أمامهم أن يحصلوا على منزلة فى المجتمع إلا بالبنيان أو العمارات التى يمتلكونها ويفاخرون بها، وتكون هى سندهم الوحيد فى محاولة أن يصلوا إلى طموحاتهم فى الدنيا.

على أن هناك معنى آخر لابد أن نلتفت إليه، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق البدو والحضر، أو المدينة والريف، لحكمة فى الحياة، والله يريد حضراً فيه كل المقومات الحضارية أو مقومات المدينة من بنيان عال وحركة حياة مزدحمة إلى آخر صفات الحضارة أو المدنية التى نعرفها، وفى الوقت نفسه يريد بادية أو ريفا له كل مقومات البادية أو الريف والحضارة البدوية أو الريفية لها دور هام فى الراحة النفسية، فنجد أن أى إنسان يعيش فى المدينة لا يستريح إلا إذا ذهب بعض الوقت إلى مكان خلوى أو مزارع ليقضى بها جزءا من وقته بعيدا عن حضارة المدينة وزحامها وضجيجها، فالنفس البشرية لا ترتاح إلا فى المكان الذى فيه فطرة الحياة بدون حضارة البشر.

والله سبحانه وتعالى يريد حياة متكاملة متساوية، ذلك أن ملكات الإنسان متساوية، لا تطغى فيها ملكة على ملكة، وهو لا يستطيع أن يستغنى فى حياته عن تلك الأماكن التى فيها فطرة الله وحدها.

يأتى زمن يتحول فيه الأُجراء فى البادية أو الريف إلى مُلاّك للمال، ويصبح المال فى أيديهم كثيراً وكانوا من قبل معدمين، حينئذ لا تكون طموحاتهم فى أن يزيدوا الريف أو البادية جمالاً فطريا بل إنهم يفسدونه بكثرة البنيان حتى أصبح الريف كالحضر من كثرة البنيان فيه، ويتم هذا عشوائيا بدون تخطيط يساعد على إبقاء جمال الريف أو البادية الذى وهبه الله لها، بل يتم كل ذلك بصورة دميمة تجعل هذه الأماكن - بعد أن كانت لراحة النفس البشرية - مصدر تعب لها ولا يجد الإنسان مكاناً يذهب إليه ليستريح فيه.

حينئذٍ نجد أن الذين كانوا من فقراء أهل الريف أو البادية ويعملون فيه يتركون عملهم؛ لأنهم تَعالَوا فى البنيان وتصبح الأرض لا تجد من يزرعها، ويزيد هذا من قبح الريف أو البادية؛ لأنها تصبح مهجورة، وبذلك تختل ملكات الإنسان لأنه لا يجد مكاناً يستريح فيه وهذه العملية تتم بالتدريج وعلى مر الزمن.

ومن علامات القيامة أيضاً التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النساء

الكاسيات العاريات»[1]. وهذا ما نراه حولنا الآن، فعدد من النساء يظهرن من أجسادهن أكثر مما يسترن منها، والله سبحانه وتعالى أمرهن بأن يسترن أجسادهن وحدد ما يكشف بالوجه والكفين، وهذا يرجع إلى أن الناس يبتعدون عن دينهم ولم يعد الدين حاكماً لحركة الحياة ولا تصرفات البشر كما كان يجب أن يكون.

❁ ❁ ❁

(١) روى مسلم [٢١٢٨/١٢٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

ومن علامات الساعة.. إسناد الأمر لغير أهله

ومن علامات الساعة أن «يوسد الأمر لغير أهله»[1]. وهذا الحديث له معنيان:

المعنى الأول: أن العقل البشرى يستنفد تجربته، ويستنفد فكره، ويستنفد طموحاته كلها فى اكتشاف أسرار الله فى كونه، حتى يظن الإنسان أنه بالعلم الذى وصل إليه، وبالامكانيات أو التكنولوجيا التى يقولون عنها، قادر على أن يتصرف فى الحياة وفق ما يريد وأن يخضع أحداثها لإرادته.

وما دام الإنسان قد ظن أنه قادر على الحياة فى الأرض، وعلى أن يفعل ما يشاء بذاته، ينسى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع له هذه الإمكانيات فى الأرض واستخلفه فيها وجعلها خاضعة لإرادته، ينسى الإنسان قدرة الله ولا يعتقد إلا فى قدراته، وإذا نسى الإنسان قدرة الله فقد ترك منهجه وبدأ يتصرف فى الكون وفقاً لإرادته، أو ما تشتهيه نفسه فتختل الموازين ويستعبد القوى الضعيف، ويصبح المال الحرام حلالاً، وما دام الحق قد ضاع من الأرض، والإنسان اعتقد أنه قد سيطر عليها بحيث يستطيع أن يفعل ما يريد، فإن الله سبحانه وتعالى وهو يرى البشرية قد وصلت إلى هذه الحالة، يأتى يوم القيامة ليعيد الميزان الحق يحكم بين البشر.

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤].

إذن.. إذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع؛ فإنه من علامات القيامة أن يعطى الشىء لغير أهله، أى إننا بدلاً من أن نعطى فى الدنيا الأمر لله سبحانه وتعالى لأنه هو الآمر والخالق والناهى، نأتى لغير أهل هذا الأمر والذين لا يستطيعون فننسبه إليهم دون ما حقيقة، وهكذا ينسب الإنسان بغروره التقدم العلمى الذى يحققه لنفسه وهو غير أهل لهذا، فهو لا يستطيع حقيقة أن يخضع قانوناً واحداً من قوانين هذا الكون لإرادته، ولكن القوانين كلها تخضع لإرادة الله وحده، ومع ذلك فهو يظن؛ ولنلتفت إلى قول الله سبحانه

---

(١) روى البخارى [٥٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.

وتعالى: ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ ﴾، أى اعتقدوا باطلاً على غير الحقيقة أنهم قادرون عليها، والظن نوع من التخمين الذى لا يستند إلى أى حقيقة ولا يعتد به.

ولكن أهل الأرض قد أخذوا هذا الظن وحولوه إلى يقين؛ وقالوا: لقد استطعنا بالعلم والتكنولوجيا أن نخضع الأرض ونجعلها خاضعة لمشيئتنا، وحينئذ يأتى أمر الله ليُدمر كل شىء، فيعرف الناس يقيناً أن الأرض لا تخضع لمشيئتهم، لأنها لو كانت تخضع لهذه المشيئة لاستطاعوا حمايتها من التدمير بالقوانين التى ظنوا أنهم اكتشفوها.

نأتى بعد ذلك إلى الشق الثانى من نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناه أنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون بالإبقاء على حكمهم وولايتهم ألا يختاروا الناس حسب كفاءتهم أو عملهم أو خبرتهم، ولكنهم يختارونهم من الذين يطيعونهم فى الحق والباطل، وتلك قضية يعبر عنها العصر الحديث بأهل الثقة وأهل الخبرة.

يأتى هؤلاء الحكام أو الولاة وهم يعرفون من يصلح لهذا العمل فيبعدونه عنه، ويضعون إنساناً لا يفقه شيئاً فى هذا المجال؛ لأنه يُطيعهم حتى ولو كانوا على باطل.

وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة العمل، ويصبح الذين يعملون لا يفعلون شيئاً، والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة فى الكون كله، وما دامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة تكون كل الأمور قد خضعت للهوى، لأن أهل الثقة هم الذين ينفذون هوى النفس بالنسبة للوالى أو الحاكم بدون أى اعتبار آخر، وهنا تكون حركة إشراف الناس على الحياة قد اختلت، وما دامت حركة الناس على الحياة مختلة تصبح حركة الحياة كلها مختلة.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول: «من ولى أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه، فقد خان الله وخان رسوله، وخان جماعة المسلمين»[1]، وذلك لأن مثل هذا العمل سيفسد نظام الكون كله.

---

(١) جزء من حديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١١/ ٩٤/ ١١٢١٦] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعان بباطل ليدحض بباطله حقا فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله، ومن مشى إلى سلطان الله ليذله أذله الله مع ما يدخر له من الخزى يوم القيامة، سلطان الله كتاب الله وسنة نبيه، ومن تولى من أمر المسلمين شيئا فاستعمل عليهم رجلا وهو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله: فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين، ومن ترك حوائج الناس لم ينظر الله فى حاجته حتى يقضى حوائجهم ويؤدى إليهم بحقهم، ومن أكل درهم ربا فهو ثلاث وثلاثين زنية، ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به. وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٥/ ٢١٢]: وفيه أبو محمد الجزرى حمزة ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

على أن هناك نبوءات أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات الساعة بين لنا بوضوح أكثر كيف ستختل حركة الحياة عندما تقترب الساعة.

وإذا أردنا أن نكمل الحديث عن علامات يوم القيامة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فإننا نحتاج إلى مجلدات ومجلدات، ذلك أن العلامات التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة، منها علامات تحققت، وعلامات كبرى لم تتحقق بعد، كظهور المسيح الدجال، والمهدى المنتظر، وغير ذلك مما لم يتحقق بعد، ولكننا لم نتعرض إلى ما لم يتحقق مكتفين ببعض ما تحقق فعلاً، وإذا كان بعض الناس يشكون أو لا يصدقون فى أن العلامات الكبرى للقيامة ستتحقق، فإننا نقول لهم: إن صدق ما تحقق الآن دليل على صدق ما هو قادم، ونحن نصدقه لأنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين.

على أننا قبل أن نتحدث عن بعض علامات الساعة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فإننا نقول إن هذه العلامات كلها تفسير للآيات الكريمة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

أى إن ظهور الفساد فى الدنيا هو بما كسبت أيدى الناس، أى إن منهج الله لا يتضمن الإفساد فى الأرض، بل إن منهج الحياة يضع أسس الإصلاح فى الأرض، والصلاح فى الكون، ولكن الناس بعدوا عن منهج الله فظهر الفساد، ومع ظهور الفساد سيعانى الناس لتصبح حياتهم أكثر تعقيداً وأكثر عناء، وأكثر معاناة، وذلك جزاء من الله ليذيقهم بعض ما عملوا.

ونلاحظ هنا أن رحمة الله قد سبقت عدله، فلم يقل سبحانه وتعالى يذيقهم ما عملوا ولكنه قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

أى إن الله سيذيق الناس فى الدنيا نتائج جزء يسير جدا من أعمالهم ويؤجل الجزء الأوفى للآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

أى: ما ترى على ظهر الأرض أى حى يدب بقدميه عليها.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

معناه أنهم هجروا منهج الله؛ لأن القرآن هو منهج السماء إلى الأرض، وهجروا

هذا القرآن، أى تركوا العمل بأحكامه، وكما بينا هو أن يوم القيامة يأتى عندما يهجر الناس المنهج، ويظنون أنهم بقدراتهم يحكمون الأرض، ويسيطرون عليها.

على أننا قبل أن نمضى لابد أن نقول إن علامات الساعة متى تحققت لا تختفى، وأنها تزيد ولا تنقص، ذلك فإن ما تحقق منها حتى الآن سيزداد مع مرور الزمن.

حديث جامع فى علامات القيامة

ورد فى الحديث: «إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذب، واستخفوا بالدماء واستعلوا بالبناء، وباعوا الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحكم ضعفا، والكذب صدقا، والحرير لباسا، وظهر الجور وكثرة الطلاق، وموت الفجاءة، وائتمن الخائن وخون الأمين، وصدق الكاذب وكذب الصادق، وكثر القذف، وكان المطر قيظا، والولد غيظا وفاض اللئام فيضا، وغاض الكرام غيضا، وكان الأمراء والوزراء كذبة، والأمناء خونة والعرفاء ظلمة، والقراء فسقة إذا لبسوا مسوك الضأن قلوبهم أنتن من الجيف وأمر من الصبر، يغشهم الله تعالى فتنة يتهاركون فيها تهارك اليهود الظلمة، وتظهر الصفراء يعنى الدنانير، وتطلب البيضاء وتكثر الخطايا ويقل الأمن، وحليت المصاحف، وصورت المساجد وطولت المنائر وخربت القلوب وشُربت الخمور وعطلت الحدود، وولدت الأمة ربتها، وترى الحفاة العراة قد صاروا ملوكا وشاركت المرأة زوجها فى التجارة، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وحُلف بغير الله، وشهد المؤمن من غير أن يستشهد وسلم للمعرفة وتفقه لغير دين الله، وطلب الدنيا بعمل الآخرة وإذا اتخذ المغنم دولا، والأمانة مغنما والزكاة مغرما وكان زعيم القوم أرذلهم وعق الرجل أباه وجفا أمه، وضر صديقه، وأطاع امرأته وظهرت الأصوات فى المساجد واتخذ القينات والمعازف وشربت الخمور فى الطريق واتخذ الظلم فخرا، وبيع الحكم وكثرت الشرط واتخذ القرآن مزامير، وجلود السباع خفافا، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا وقذفا وآيات»[1].

ما معنى «أماتوا الصلاة؟» الميت هو الغائب عن الدنيا، ذلك أن أساس الدين كله هو منهج للحياة الدنيا، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾ [يس].

إذن.. فالقرآن الكريم نزل للأحياء، وهو منهج السماء للحياة الدنيا، ونحن حين نموت نرى كل شىء رؤية يقين، ولا تعود هناك فائدة من إنذار بالغيب أو ما سيقع لنا؛ لأنه أصبح واقعاً فعلاً ورأيناه.

وإذا كان القرآن هو منهج السماء إلى الأرض، فإننا يجب أن نعمل به ونطبق تعاليمه

(١) رواه الترمذى [٢٢١١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وقال الألبانى: ضعيف.

فى حياتنا الدنيا، وأهم تعاليم المنهج وأساس العبادة هى الصلاة؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، وكل أحكام الدين تُرفع ماعدا الصلاة، فالحج لمن استطاع إليه سبيلا، فمن لم يستطع لأنه كان فقيراً لا يملك ما يحج به لا يكلف بالحج، والزكاة لمن عنده فائض من المال، فإذا كان رزق الإنسان يكاد يكفيه بالكاد فلا يكلف الزكاة، وإذا كان فقيراً لا يجد قوته فهو مستحق للزكاة وليس مكلفا بها، والصوم لمن كان فى تمام صحته ولم يكن مسافراً، فمن كان مريضا أو على سفر فيستطيع أن يفطر فى رمضان ويقضى الأيام التى أفطرها فى غير رمضان، إلا الصلاة فهى لا تسقط بالمرض، ولا تسقط بالسفر، ولا تسقط بالفقر، والإنسان لابد أن يصلى واقفاً فإن كان مريضاً يصلى قاعداً، وإن كان لا يستطيع أن يغادر الفراش بسبب المرض يستطيع أن يصلى راقداً، والصلاة تظل قائمة عند المؤمن من سن التكليف حتى الوفاة.

والصلاة إذن.. هى أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا، فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وأماتو الصلاة» أى غابت عن حياتهم الدنيا فلم تصبح موجودة، والميت لا يسمع ولا يعى حركة الدنيا، وكأنه من علامات الآخرة أن يؤذن للصلاة فلا يقوم أحد إلى المساجد ليؤدى الصلاة.

أى: إنه عندما يؤذن المؤذن للصلاة، كأنه ينادى على ميت فلا يجيبه أحد.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «وأضاعوا الأمانة» يؤخذ بمعناه الواسع، ومعناه المحدود، فالأمانة هى منهج الله التى حمّلها للإنسان فى الأرض، وحمله الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وكأن إضاعة الأمانة معناها أنهم أضاعوا منهج الله فى الأرض، هذا هو المعنى الواسع، أما المعنى المحدود فهو أن الأمانة بين الناس ضاعت، أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عندما تصبح الأمانة مغنما»؛ أى: إنه يأتى الإنسان إلى أخيه الإنسان يحمله أمانة بأن يحافظ على ماله أو على عرضه أو على أولاده، فيعتبر هذا الشخص هذه الأمانة غنيمة له ولا يردها، يأخذها وهو يعد بردها، ولكنه بمجرد أخذها يعتبرها غنيمة لا ترد، فإذا كانت الأمانة مالاً ينكره ولا يرده، وإذا كانت الأمانة على العرض أو الزوجة يحاول هو أن يغرى هذه الزوجة بالفاحشة ويدفعها إلى خيانة زوجها، ويعتبرها غنيمة له ليستحل ما حرمه الله، وإذا كانت هذه الأمانة فى الأولاد أخذ هؤلاء الأولاد وكلفهم بخدمته فى منزله، وربما منع عنهم الطعام والشراب، وربما ضربهم إذا لم يخدموا ويفعلوا ما يريده، وهكذا نرى أن إضاعة الأمانة بمعناها الواسع ومعناها المحدود تزداد فى المجتمعات.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وأكلوا الربا» ونحن نرى أن العالم كله يأكل الربا، وأن كل إنسان يستحل ويحب أن ينمو ماله بلا حركة ولا عمل، وهذا ما حرمه الإسلام، والربا هو أساس الكوارث الاقتصادية، واضطراب اقتصاد العالم الآن، حتى أن

دولاً أعلنت إفلاسها بسبب عجزها عن سداد فوائد الديون، أو بسبب تعاملها بالربا، وهو ما حرمه الله ولن يتصلح اقتصاد العالم إلا إذا عاد إلى منهج الله، وانتهى نظام الربا كنظام عالمى ليحل محله نظام المشاركة الإسلامية والنظم الإسلامية التى وضعها الإسلام.

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «واستحلوا الكذب» فمعنى ذلك أن الكذب أصبح حلالاً يتعامل به كل الناس بدلاً من الصدق، ومن كثرة الكذب يصبح هو السمة الغالبة فى المجتمع، ويصبح الإنسان يسمع الكلام فلا يصدقه لأن الثقة قد انتهت.

والكذب هو انفصال الكلام عن الفعل، وما دام الكلام ينفصل عن الفعل فى حياة الإنسان ويراه فى كل شىء حوله، فإن ذلك يهدم الثقة فى المجتمع ويعطى الناس الشعور بأن كل ما يقال هو زيف وليس حقيقة، وفى هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها، فيصبح واقع الحياة شيئاً وما يتكلم به الناس شيئاً آخر، والإنسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة أو عملاً شائناً، ذلك أن العمل الذى أحله الله يتباهى به الناس جميعاً، فإذا كنت مثلاً مع زوجتك فى البيت وسألك أحد أين كنت؟ قلت بلا تردد وبدون أن تحاول أن تكذب: كنت مع زوجتى فى البيت، أما إذا كنت فى البيت مع زوجة رجل آخر وسألك أحد أصدقائك: أين كنت؟ فإنك فى هذه الحالة تلجأ إلى الكذب لتخفى مخالفة لمنهج الله لا تنسجم معه حياة النفس البشرية وملكاتها، وأنت حين تملك مالاً حلالاً فإنك تجلس فى أى مكان وتحصيه إن أردت إحصاءه، ولكن إذا كان هذا المال حراما فإنك تبحث عن مكان مهجور أو طريق مظلم أو بيت لا يراك فيه أحد لتحصى هذا المال، فإذا سألك أحد: ماذا كنت تفعل؟ كذبت ولم تستطع أن تقول له: كنت أعد مالاً مسروقاً.

إذن.. فإنه عندما يستحل الكذب فمعنى ذلك أن المعصية قد تفشت فى المجتمع، وأن أفعال الناس لا تتفق مع منهج الله، وما دامت الأعمال لا تتفق مع منهج الله، فإن الناس يستحلون الكذب ليخفوا معاصيهم، وهذا دليل على انحراف خطير فى المجتمع.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «واستخفوا بالدماء»؛ أى انتشر القتل بدون قصاص.

وهذا ما نراه الآن فى العالم كله فى الحروب الأهلية، وحوادث النسف والتدمير التى لا تكاد تخلو نشرة أخبار واحدة منها، هؤلاء الناس الذين ديروا حوادث النسف هذه، واستخدموا السيارات الملغومة، وأطلقوا الرصاص عشوائيا، واستخفوا بدماء الناس، لأن هؤلاء الضحايا هم ضحايا أبرياء لم يفعلوا شيئاً حتى استحقوا القتل، وهم ليسوا طرفاً فى النزاعات التى تحدث، ولذلك لا تستحل دماؤهم، ولكن أولئك الذين يقومون بهذه العمليات التى تتم فى معظم دول العالم ويدبرون حوادث النسف والاغتيال إنما يستخفون بدماء البشر.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «واستعلوا بالبناء وباعوا الدين بالدنيا»، معناه أن الناس قد استحلوا جمع المال عن أى طريق، وبأى طريق وليس لديهم أى وازع من الدين، بل إنهم فى عملهم وكل تحركاتهم ليس فى بالهم الله، ولكن فى بالهم أن يعلو بنيانهم وتزداد ثرواتهم، وما دام هناك بيع فمعناه أن هناك سلعة وثمناً، وكون الذى بيع هو الدين فمعناه أنهم أخذوا مغانم الدنيا بدلاً من منهج الله، وأصبح الصراع بين الناس صراعاً بين دنيا ودنيا، وليس صراعا بين دنيا وآخرة، ولم يعد أحد يحرص على الدين حرصه على المال أو متاع الدنيا، مع أن كل ما فى الدنيا زائل مهما طال العمر.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كانت الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً، والتعليم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وود صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات فى المساجد، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات، وكثرت المعازف، وشرب الخمر، ولعن آخر هذه الأمة أولها»[1].

ومعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من علامات القيامة أن تكون الأمانة غنيمة لمن أؤتمن عليها لا يردها، وقد سبق أن بينا ذلك؛ أما أن تكون الزكاة مغرماً فهى أن يعتبر الناس دفع الزكاة غرامة يحاولون أن يتهربوا منها، بينما الزكاة هى ركن من أركان الإسلام، ووسيلة للتقرب من الله سبحانه وتعالى، ولكن الناس لأنهم ابتعدوا عن منهج الله يعتبرون الزكاة غرامة لا يؤدونها إلا وهم كارهون، هذا إذا أدوها ويحاولون التهرب من أدائها بمبررات كاذبة.

والتعليم لغير دين الله نراه الآن فى مجتمعاتنا، فالأب حريص على أن يعلم ابنه اللغات، وحريص أن يعلمه العلوم الدنيوية، والناس يتقاتلون ليلحقوا أولادهم بما يسمى الآن بمدارس اللغات، والأب يضرب ابنه ويراقبه مراقبة دقيقة إذا لم يذاكر، مع أنه لا يأمره بالصلاة مثلاً ولا يحاسبه عليها ولا يحثه عليها، ولا يحاول أن يجعله يدرس علوم الدين مع علوم الدنيا أو يعرف شيئاً عن دينه، بل كل همه هو العلوم الدنيوية، مع أن الأب فى هذا قصير النظر ذلك أنه يعمل لشىء قد لا يقع ويترك شيئاً لا محالة واقع، فقد يموت الابن قبل أن يتخرج فى الجامعة فلا يحقق هدفاً، وقد يصاب بمرض يقعده عن العمل

---

(١) فى مجمع الزوائد [٧/ ٦٣٤] عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فلما صلى صلاته ناداه رجل: متى الساعة ؟ فزجره رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره وقال: «اسكت» حتى إذا أسفر رفع طرفه إلى السماء فقال: «تبارك رافعها ومدبرها». ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال: «تبارك داحيها وخالقها». ثم قال: «أين السائل عن الساعة؟». فجثا رجل على ركبتيه فقال: أنا بأبي وأمي سألتك فقال: «ذاك عند حيف الأئمة، وتصديق بالنجوم وتكذيب بالقدر، وحتى تتخذ الأمانة مغنماً والصدقة مغرما، والفاحشة زيارة فعند ذلك هلك قومك». وقال: رواه البزار وفيه من لم أعرفهم.

فيضيع كل ما تعلمه، ولكن هذا الابن لا محالة سيقابل الله، أى إن تعلمه للدين واتباع المنهج أمر له جزاء مضمون، فلا أحد سيفلت من الآخرة، أما علوم الدنيا فلا ضمان فى الدنيا، ومع ذلك فإننا نجد الناس يتكالبون ليعلموا أولادهم غير الدين، ولا يهتم إلا القليل منهم بتعليم أولاده الدين ومحافظتهم على الصلاة وحثهم على صالح الأعمال.

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وود صديقه وأقصى أباه»، فمعناه أن الرجل حينما يتزوج يطيع امرأته فى كل شىء، وهو يغرقها بالمال وما تحتاج إليه، فإذا كانت أمه فقيرة عقها ولم يعطيها شيئا، وإذا كانت مريضة وطلبت منه امرأته أن تذهب لزيارة إحدى صديقاتها ترك أمه المريضة ولم يزرها، وصحب زوجته فى هذه الزيارة، وإذا كانت الأم تعيش وحيدة فى شقة أغرته امرأته بإخراج أمه من الشقة لتحصل هى على الشقة، وبيوت المسنين فيها أمثلة كثيرة من الأمهات اللاتى طردهن أولادهن من منازلهن، وأحياناً يؤذى الرجل أمه إرضاء لزوجته مع أن الرجل أمامه آلاف النساء ليختار منهن زوجة، ولكن ليس له إلا أم واحدة، وعقوق الأم جريمة كبرى فى الإسلام، فالله قد حث على رعاية الأم والأب فى شيخوختهما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[(١)]، وعندما سأله صحابى من أحق الناس بصحبتى يا رسول الله؟ قال رسول الله: «أمك» وكررها ثلاث مرات[(٢)].

وما يقال عن الأم يقال عن الأب، فالابن قد يترك أباه المريض الذى لا يجد أحداً يعطيه كوب ماء، ويذهب ليقضى السهرة مع أصدقائه، وقد يأخذ مال أبيه الذى هو فى أمس الحاجة إليه لينفقه على أصدقائه، وقد يزور صديقه المريض ولا يزور أباه المريض.

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وظهرت الأصوات فى المساجد»[(٣)]، أن الناس يذهبون إلى المساجد ليس للعبادة، ولكن للتحدث فى شؤون الدنيا، والمسجد

---

(١) رواه القضاعي فى مسند الشهاب [١١٩] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه.

(٢) روى البخارى [٥٩٧١]، ومسلم [٢٥٤٨/١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك.

(٣) روى الترمذي [٢٢١١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا اتخذ الفيء دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها: فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء، وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام لآل قطع سلكه فتتابع». وقال الألباني في الضعيفة [١٧٢٧] ضعيف.

هو بيت الله وإذا ذهبت إلى المسجد فأنت تذهب لذكر الله والعبادة، وإيّاك وأنت فى المسجد أن تتحدث فى شأن من شؤون الدنيا، ولكننا نرى الناس يذهبون إلى المساجد لإتمام صفقة، أو للاتفاق على تجارة، أو أى شىء من هذا القبيل. ويقول أحدهم للآخر: سأقابلك فى المسجد لنتفق على هذا وذاك، وبذلك تخرج المساجد عن أنها دور للعبادة وتصبح مكاناً دنيويا للتحدث فى شؤون الدنيا، ومن يتفق على تجارة أو أى شأن من شؤون الدنيا فى المسجد فلا يبارك الله له فيما اتفق عليه، وذلك أن المسجد لا يقصد إلا للعبادة ولا يتحدث فيه إلا بذكر الله والتسبيح له.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وأكرم الرجل مخافة شره»، أى إن الناس من خوف الدنيا تكرم الرجل الشرير اتقاء شره، ولا تكرم الرجل الكريم، فالإنسان عادة يُكرم لدينه، ويكرم لخلقه، ويكرم لعلمه، ولكنه لا يكرم أبداً لشره، بل إن الإنسان الشرير لابد أن يقف المجتمع كله أمامه حتى يُقَوِّمُونَه، ولكن لأن الخوف يملأ قلوب الناس؛ فإنهم لا يجرؤون على مواجهة الإنسان الشرير، بل يكرمونه ليبتعد عنهم، وفى هذا تشجيع للشر والرذيلة فى المجتمع، بحيث يصبح الشر هو القوى وهو السائد وهو الذى يحكم المجتمع.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وكثرت القينات والمعازف وشرب الخمر»، والقينات هى المغنيات وغيرهن ممن يعملن فى هذا المجال، والمعازف معناها أماكن اللهو التى تعزف فيها الموسيقى، وتلهى الناس عن دينهم وعن ذكر الله، ولعلنا نشهد الآن هذه الظاهرة بعد أن كثرت أماكن اللهو والغناء والخمور، وأصبحت فى كل حى، وهى تزداد ولا تنقص بمعنى أنه يُفتح الجديد منها، والقديم قائم.

ظهور هذه الأماكن معناه أن الناس قد نقضوا نظام الله فى الكون، ذلك لأن الله تعالى قد جعل الليل لباسا والنهار معاشا، أى إن الإنسان المؤمن حين يأتى الليل يأوى إلى بيته بعد صلاة العشاء لينام، ولكن وجود هذه الأماكن يجعل الناس يسهرون الليل بدلا من أن يناموه، ويضيع منهم اعتدال حركة حياتهم، ويقوم الإنسان من نومه بعد شروق الشمس بساعات، ويكون قد أضاع صلاة الفجر التى هى خير من الدنيا وما فيها، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]، وينزل الإنسان لعمله متعباً لأنه لم يمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى، أن ينام الليل بل ظل ساهراً حتى ساعة متأخرة وتكون النتيجة أنه أضاع صلاة الفجر وأضاع إنتاج اليوم.

وبعض الناس يشكون من أنهم لا يستطيعون الاستيقاظ عند الفجر للصلاة، نقول

(١) رواه مسلم [٩٦/٧٢٥]، والترمذى [٤١٦]، والنسائى فى المجتبى [١٧٥٩] عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

لهؤلاء جميعاً: لو اتبعتم منهج الله وآويتم إلى فراشكم بعد صلاة العشاء فإنكم ستستيقظون فى الفجر، بل قبل الفجر ربما بساعة أو أكثر، فالليل للسكون وليس للحركة وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ ﴾ [النبأ].

ولكن المعازف والسهر فى الليل، يتنافى مع كون الليل سكناً لينام الإنسان ويجدد نشاطه.

إذن.. فظهور القينات والمعازف وشرب الخمر هو إفساد لمنهج الله وإضاعة لصلاة التهجد، وصلاة الفجر وقرآن الفجر، وكل هذا يشير إلى أن الناس يبتعدون عن تطبيق المنهج.

ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويلعن آخر هذه الأمة أولها»[1]، أى إن الذين يعيشون خلال هذه الفترة يهاجمون الصحابة ويصفون هذا الدين بالتخلف، ويتحدثون عن السلفية أحاديث مقصوداً بها تشويه السلف الصالح، أولئك الذين حملوا هذا الدين ونقلوه إلى الدنيا كلها، والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز فى وصف المؤمنين: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وهكذا طلب الله سبحانه وتعالى منا أن نطلب المغفرة لأولئك الذين سبقونا بالإيمان، على أساس الوحدة الإيمانية للمؤمنين أولاً، وعلى أساس أنهم تركوا لنا من العلم ما ننتفع به فى ديننا، فكل ما كتب حول القرآن الكريم قام به أولئك الذين سبقونا فى الإيمان، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفسير هذه الأحاديث وصلتنا عن الذين سبقونا فى الإيمان وكتبهم ودراساتهم لا تزال موجودة بيننا حتى اليوم تعطينا نور الإيمان، وتبين لنا كيف أن السلف الصالح قد أفنوا أعمارهم فى دراسة دين الله والتفقه فيه ليقدموا لنا ذخيرة لا تنفد، وكان المنتظر منا بعد أن قدموا لنا هذه الخدمة الجليلة فى ديننا، أن نطلب لهم الرحمة والمغفرة وأن يتقبل الله منهم صالح أعمالهم، بهذا وصف الله المؤمنين فى القرآن الكريم.

ولكننا الآن نجد تجنياً واضحاً وعلنيا على السلف الصالح، وهجوماً وتشويها لصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلصاق التهم الباطلة بهم وصب اللعنات عليهم، واتهامهم بأنهم سبب تخلف هذه الأمة، وهذا يتم جهاراً ونهاراً فى الصحف والمجلات والكتب، ويتخذ بعض الناس من الهجوم على السلف الصالح وتشويههم صناعة يتكسبون منها فى الحياة الدنيا.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من علامات القيامة «أن يكون الزهد

---

(١) سبق تخريجه.

رواية والورع تصنعاً، وأن يكون الولد غيظ أبيه وأمه، وأن يصدق الكاذب، ويكذب الصادق، ويؤتمن الخائن، ويخون الأمين، ويسود كل قبيلة منافقوها، وكل سوق فجارها، وأن يعمر خراب الدنيا ويخرب عمرانها»[1].

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن يكون الزهد رواية والورع تصنعا» هو أن يختفى أولئك الزهاد والورع الحقيقيون، وأن يُظهر الإنسان غير ما يُبطن، فيصبح الزهد ليس حقيقة، ولكنه مجرد روايات كاذبة يتناقلها الناس عن بعض الناس فى محاولة لخداع عامة المسلمين، وإيهامهم بأن هذا الرجل زاهد فى الدنيا ليحصل بهذه الطريقة على مزيد من المال، ويقال: إن هذا الإنسان زاهد فى حين أنه يملك مالاً كثيراً يكنزه ولا يتصدق به أو تصبح تجارة الناس هى الدنيا، ومن تكالبهم عليها لا يكون الزهد حقيقة، ولكنه يكون ماضياً قد اندثر يحكيه الرواة عن آبائهم أو عن أجدادهم ويقولون فى عام كذا كان هناك رجل زاهد يعيش فى مكان كذا ويفعل كذا وكذا، وتصبح حكايات الزهد كلها هى روايات عن الماضى ليس لها واقع، وليس لها حاضر، فيبحث الناس عن الزهاد فلا يجدونهم.

«والورع تصنعاً»، أى إن الناس تتظاهر بالورع، ولكنه فى الحقيقة ليس موجوداً فى قلوبهم، وينتشر الرياء فى الدين فيذهب الإنسان إلى المسجد لا بقصد الصلاة، ولكن ليقول الناس عنه: إنه مصل، ويذهب الناس إلى الحج لا بقصد الحج، ولكن ليقال عنه إنه حاج، ويتحدث الناس عن الدين ويتخذونه صناعة يعلمونها للناس ولا يعملون به، ويقيم الناس المساجد ولا يقصدون منها وجه الله وإنما يقصدون منها أن تخلد أسماؤهم فى الدنيا أو أن يحصلوا على إعفاءات من رسوم عقارات أو أرض مجاناً، أو أى ميزات دنيوية كالذى يخصص مكاناً صغيراً فى عمارة كزاوية للصلاة وهو فى الحقيقة يريد إعفاءه من الضرائب العقارية، أو كالذى يتحايل لبناء عمارة بأن يحصل على رخصة بناء مسجد حتى يتخطى أوامر منع البناء فى منطقة معينة، ثم بعد ذلك يقيم العمارة التى يريدها، أو ذلك الذى يأتى إلى أرض ليسورها على أساس أنها مسجد ليأخذها مجانا، أو بثمن زهيد، ثم بعد ذلك يبنى عليها ما يريده.

كل هذه الأشياء لا تنفع، ولا يجزى الله سبحانه وتعالى عنها أحداً من الذين قاموا

---

(١) أخرج البيهقي في البعث والنشور عن الحسن قال: قال علي خرجت في طلب العلم فقدمت الكوفة فإذا أنا بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقلت يا أبا عبد الرحمن: هل للساعة من علم تعرب به؟ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: «إن من أشراط الساعة أن يكون الولد غيظا، والمطر قيظا، وتفيض الأشرار فيضا، ويصدق الكاذب، ويؤتمن الخائن، ويخون الأمين، ويسود كل قبيلة وكل سوق فجارهم، وتزخرف المحاريب، وتخرب القلوب ويكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ويخرب عمران الدنيا، ويعمر خرابها، وتظهر الفتنة، وأكل الربا، وتظهر المعازف والكنوز، وشرب الخمر، ويكثر الشرط والغمازون والهمازون».

بها، فلا يعتقد أحد أنه يستطيع أن يخدع الله، قد يستطيع الإنسان أن يخدع الناس، ولكن أحداً لن يستطيع أن يخدع الله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فإذا لم يكن بناء المسجد يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى، خالصاً يشيد أولاً كمسجد وليس كوسيلة للحصول على إعفاء ضريبي أو رخصة بناء، أو أي نوع آخر من الفوائد الدنيوية، وألا يكون تخليداً لذكرى إنسان، إذا لم يكن المسجد كذلك فلا يتقبل بناؤه، أما ما يمكن أن يقال عن المساجد التي سميت بأسماء أولياء الله الصالحين، فإن هؤلاء الصالحين اسمهم خالد في الدنيا بعملهم الصالح وهم لم يبنوا هذه المساجد، وإنما بناها من بعدهم، كما أنها مبنية في أحياء من المدن مسماة بالأسماء نفسها، والمهم هنا ألا تكون نية صاحب المسجد وهو يبنيه أنه يفعل شيئاً ليخلد اسمه في الدنيا.

وهكذا نرى أن من علامات الساعة أن يصبح الزهد رواية، ويختفي الزهد من الدنيا، ويلعن السلف الصالح، وأن يصبح الورع تصنعاً؛ أي يختفي الورع من القلوب، ويصبح مجرد صناعة يلجأ إليها بعض الناس من أجل أغراض دنيوية.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن يكون الولد غيظ أبيه وأمه»، معناه أن موازين الحياة ستختل بحيث يصبح الولد أو الابنة هما مثار التعب والغيظ للأم والأب، والولد أساساً يكون قرة عين أبيه وأمه، وامرأة فرعون قالت عن موسى عليه السلام: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

أي إن الولد أساساً موجود في الدنيا كقرة عين لأبيه وأمه، يعينهما على الحياة ويطعمهما ويرعاهما في الكبر، ولكن بدلاً من أن يحدث ذلك، يكون الولد غيظاً لأبيه وأمه يعمل ما يغيظهما فيتلف المال، وربما كان الأب والأم لا يملكان من المال ما يكفي، ويوجد لهما المشاكل بسوء عمله مع الناس أو اعتدائه عليهم، ولا يعينهما على قضاء حوائج الحياة، فإذا طلبا منه لهما شيئاً رفض، وإذا طالباه بأن يؤدي عملاً قال: لا، وهكذا لا يأتي منه راحة لأبيه وأمه، بل يأتي منه ما يغيظهما وينغص عليهما حياتهما، ويصبح الأب يتمنى لو أنه لم يرزق بهذا الغلام الذي حول حياته إلى شقاء لا يعينه على الحياة، ولكنه يزيدها ظلمات وتعقيداً.

كما أن بعض الأبناء لا يحمل احتراماً لأبيه، فإذا تكلم الأب عارضه الابن، وربما هاجم رأيه إلى آخر ما نراه الآن، وكل هذه العلامات إنما هي دليل على نقض منهج الله وعدم العمل به.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن يصدق الكاذب ويكذب الصادق ويؤتمن الخائن ويخون الأمين»، معناه اختلاط القيم في المجتمع بحيث يختلط الأمر على الناس، فمن كثرة الكذب الذي يسمعونه لا يعرفون من يصدقون ومن يكذبون، كل كلمة

تحتمل الكذب، وكل ما يقال بعيد عن الحقيقة، ولذلك فإن الناس يصدقون الكاذب لأنهم لا يسمعون إلا كذبا، فإذا جاء إنسان مخلص يريد أن يقول لهم الحقيقة كذبوه، كذبه أولا أصحاب المنافع الدنيوية الذين يريدون للكذب أن يسود حتى يصلوا إلى أهدافهم بالنفاق والخداع، وكذبه الناس من كثرة ما يروى من الكذب على أنه صدق.

«ويؤتمن الخائن ويخون الأمين»، تحمل معنى اختلال القيم نفسه، فلا يعرف الناس من هو الأمين من كثرة انتشار الخيانة، فعندما يأتى رجل أمين لا يصدقه الناس، ويخونونه لأن الخيانة هى السمة فى المجتمع كله، أما أن يؤتمن الخائن فهى أن يكون أناس خونة يدعون الأمانة ليحصلوا على أموال الناس بالباطل، وبعض الناس يصدقونهم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «ويسود كل قبيلة منافقوها»، علامة على أن النفاق سيكون هو الوسيلة للارتقاء فى المجتمع، والتقدم إلى أعلى المناصب، وهذا أيضاً دليل على اختلال القيم فى المجتمع، فلا يعتمد تقدم الإنسان على علمه، أو عمله، أو ثقافته، أو مهارته، بل يعتمد على إتقانه للنفاق، فكلما أتقن الإنسان النفاق كانت فرصته أكبر للوصول إلى أعلى المناصب.

وهكذا تصبح القمة من المنافقين، ويتزوى المخلصون بعيداً، وهذا معناه أن الأمور لا تصرف بالحق، ولا بالصدق، ولا بالأمانة، ولكن تصرف بهوى النفس، وتصبح الأغراض الشخصية هى التى تحكم.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن يسود كل سوق فجارها»، والفاجر هو الذى يجاهر بالمعصية، أى إن يكون أولئك العاصون هم الذين يعجب بهم الناس ويجاهرون بالمعصية، وأن يكون التاجر الذى يغش ويبخس فى الميزان ويحقق الأرباح الفاحشة، هو سيد السوق؛ أى أكثر التجار غنى وأكثرهم احتكاراً لأقوات الناس.

وأن يكون المؤمن فى القبيلة أذل من النقد، والنقد هو: صغار الغنم، أى لا يؤبه به، ولا يكون له أى وزن فى قبيلته لأنه محافظ على إيمانه.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن يخرب عمران الدنيا ويعمر خرابها»، أى إن تحدث الفتن فى المدن التى يسكنها الناس، ويقاتل الناس بعضهم بعضا حتى تخرب الأماكن العامة، ويهرب منها الناس، وتصبح خراباً، وهذا حادث الآن فى كثير من دول العالم، حيث تُخرب الحروب الصغيرة والحروب الأهلية المدن العامرة، وتحولها من أماكن مليئة بالخير إلى أماكن خربة.

ولعلنا إذا أردنا أن نأخذ مثلاً قريباً، فأمامنا لبنان، أما أن يعمر خراب الدنيا فمعناها أن تضيق الأرض بالناس حتى إنهم لا يجدون حلا لاستمرار حياتهم إلا أن يعمروا الأماكن الخربة، فيحاولوا زراعة الصحراء والأماكن النائية عن العمران لتستطيع الحياة أن تستمر.

ومن علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ظهور شهادة

الزور، وكتمان شهادة الحق، ونشر الغلم أى: - كثرة النكتة - وقلة العلماء، وانتشار البيع بالربا والسحت بالهدية، وأن تزخرف المحاريب، وتخرب القلوب»[١]، ومعنى ذلك أن الحق يختفى من الأرض، فتظهر شهادة الزور، وتكتم شهادة الحق، ويجد الرجل أن هناك قول زور يقال أمامه فيؤمن عليه، ولا يستطيع لسانه أن ينطق بشهادة حق، ونشر الغلم أى كثرة النكتة معناه: استهتار الناس بالقيم، وأخذهم الجد بالهزل، فيهزلون طوال يومهم ولا يقوم أحد منهم بأى عمل جاد، وقلة العلماء، أى إن العلماء يصبح عددهم أقل من القليل، فلا يوجد العلماء الذين ينشرون كلمة الحق، وذلك معناه أن يذهب الصالحون الأول فالأول، ولا يبقى إلا أولئك الذين لا يعرفون من العلم إلا القليل النادر.

واستحلال البيع بالربا، معناه أن ينتشر الربا، ويقول الناس عنه إنه بيع، أى يحصل الناس على الربا ويستحلوه باسم البيع، والسحت بالهدية، أى يستحل الناس الرشوة على أساس أنها هدية، أى إن الناس يتحايلون على إظهار الربا أنه بيع والحصول على الرشوة والمال الحرام، ويسمونه هدية.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «أن تزخرف المحاريب، وتخرب القلوب»[٢]، معناه أن حقيقة الإيمان تختفى ولا يبقى إلا مظهره، فالناس تكون قلوبها خربة ليس فيها ذرة من إيمان، ومع ذلك فهى تتسابق لزخرفة المنابر والمساجد تظاهراً وليس عن إيمان.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وأن يقرأ القرآن فلا يتجاوز الحلقوم»، معناه أن القرآن سيقرأ باللسان فقط، ولا يعمل به، أى إن الإنسان يقرأ القرآن بلسانه فلا يدخل إلى قلبه، ويقوم من قراءة القرآن ليفعل ما حرمه الله.

هذه بعض أشراط الساعة، أو علامات القيامة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهناك علامات أخرى كثيرة قد تحققت سنتعرض لها فى هذا الكتاب إن شاء الله.

وما دمنا قد تحدثنا عن مقدمات الساعة، فلابد أن نكمل الحديث عن بداية الساعة.

---

(١) روى البخارى فى الأدب المفرد [١٠٤٩] عن طارق بن شهاب بن مسعود رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: بين يدى الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وفشو العلم، وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق». وصححه الألبانى، وأحمد فى المسند [١/٤٠٧، ٤٠٨]، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، والحاكم فى المستدرك [٧٠٤٣/ ٤١] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه.

(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال [٣٨٤٩٥] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه.